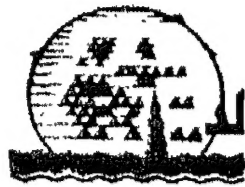


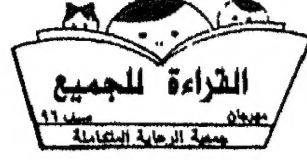
اهداءات ١٩٩٨
الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة

معاً على الطريق



خالد محمد خالد

General Organization of the Alexandria Library
Bibliotheca Alexandrina الطبعة الثانية



مهرجان القراءة للجميع ٩٦
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الفكرية)

معاً على الطريق
خالد محمد خالد

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلي
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

على سبيل التقديم . . .

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كاضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وايضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية وياخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

نظراً للإقبال الجماهيري على هذا الكتاب فى
طببعته الأولى، حيث نفذت الكمية المطبوعة منه خلال
ساعات قليلة، رغم ضخامة الكمية المطبوعة. فقد رأت
اللجنة العليا المنظمة لمشروع مكتبة الأسرة برئاسة
السيدة سوزان مبارك - حرم السيد رئيس الجمهورية
ورئيس اللجنة العليا إعادة طرحه فى طبعة ثانية بناء
على رغبة القراء الذين طالبوا بالمزيد من هذه الأعمال
الخالدة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا ما أريده تمامًا . .

أن أقول للذين يؤمنون بالمسيح ، وللذين يؤمنون بمحمد :

— برهان إيمانكم إن كنتم صادقين . أن تهبوا اليوم جميعاً لحماية
الإنسان . . وحماية الحياة . .

وليس هذا الكتاب تأريخاً للمسيح ، ولا تأريخاً للرسول . . فتاريخهما
قد بسط بسطاً لا يشجع على التكرار . .

ولأنما هو تبيانٌ لموقفهما من الإنسان ، ومن الحياة . . أو بتعبير أكثر
سدّاداً . . موقفهما « مع » الإنسان . . و « مع » الحياة . .

* * *

نقد أخذني حنينٌ واعي ، إلى الكتابة عن الرسول ، وعن المسيح . .
وفي ذات الوقت ، كان يناديني الواجب الذي كرسْتُ له ، أو أريد

- دوما - أن أكرس له حياتي . . وهو : الإسهام في حماية الإنسان ،
والحياة ، من الكذب . . ومن العجز . . ومن الخوف . . .

وفي اللحظة التي يعطى فيها وجدان الكاتب ، إشارة البدء ، وَجَدْتُني
أكتب هذا الموضوع ، تحت هذا العنوان . . . !

ولم أسأل نفسي ، كيف تمَّ هذا اللقاء السعيد بين رغبتى في أن أكتب
عن محمد ، وأخيه ، ورغبتى في الكتابة عن الإنسان ، والحياة . . . !
فأنا أكاد أعرف - تماما - لماذا جاء محمد . . ولماذا جاء المسيح . .

ولأنه فوق أرض فلسطين ، شهد التاريخ يوماً ، إنساناً شامخ النفس ،
مستقيم الضمير ، بلغ الإنسان في تقديره ، الغاية التي جعلته ينعتُ نفسه
بـ « ابن الإنسان » . . . ! !

وابن الإنسان هذا ، ذو العبير الإلهي . . تتركنا كلماته ، ويتركنا
سلوكه . . ندرك إدراكاً وثيقاً ، الغرض العظيم الذي كابد تحقيقه ،
ألا وهو : إنهاض الإنسان ، وإزهار الحياة .

ومن بعده بستمائة عام . . تأخذ الأرض زينتها لتستقبل إنساناً آخر .
ما يكاد يُسأل عن أفضل الأعمال وأبقاها ، حتى يجيب : بذل السلام
للعالم . . وأن تعيشوا - عباد الله - إخواناً . . . ! !

ويغار على الإنسان . . حتى إن فؤاده الذكيّ ، ليكاد يتفطر أسى
على موبقاته . . ويتفجّر آملا في مستقبله ، وثقة في قدراته . .

أيها الإنسان . .

لماذا تسجد للأصنام . . ؟؟ ؛ ولو كان ثمّة من يُسجد له غير الله . .
لكنت وحدك ذلك المعبود . . !

ولماذا تذللّ للسّادة ، والأعلى . . ؟؟ وأنت هنا ، وفي هذه الأرض ،
خليفة الله . . !

ويا أيها الناس . .

لماذا تعيشون طبقات . . ؟؟ وقد خلقكم الله سواسية كأسنان
المشط . ولم يجعل لابن البيضاء على ابن السوداء فضلًا إلا بالعمل
والتقوى . . !

ويحب الحياة حبّ عاشق عظيم . . فيستقبلها عند صُبح النهار ،
وممساء . . وفي ناشئة الليل ، وأخراه . . ويعانقها في الزرع الطالع . .
وفي المطر الهاطل . .

* * *

وبعد ، فعلى الصفحات المقبلة ، سنلتقي بفيض من اللّفات الذكّة ،

والتوجيهات السديدة التي نَحَّتْ عن الإنسان كثيراً من مشبطاته .
وسنبصر في ضياء اللمسات الرفيعة الهادية ، جميع الجلال الذي أرادته
للإنسان وللحياة ، محمد ، والمسيح . .

ومن سلوكهما هذا ، وتوجيهاتهما تلك ، سيأخذ ولاء المؤمنين
بالإنسان وبالحياة ، زاداً باقياً .

وحسبنا هذا ، حين نذكرهما في مقام التاريخ والتمجيد . . وفي مقام
القدوة والتأسي ؟

خالـم

الفصل الأول

سقراط ، يقرع الأجراس

كانا نبأ مُستسرّاً في مشيئة الله ، لم يُعرف بعد . . ولا تنبأ
بقدمها أحد . .

وكانت الحياة ماضية على نهجها ، وبين الحين ، والحين ، تقدم للناس
نماذج سديدة من البشر . يأخذ ذووها مكان الرواد والقدوة . أمام
الصفوف الزاحفة من الخلق . وتضربهم الحياة مثلاً لسعيها الخثيث
في سبيل التفوق ، والكمال .

وعلى حين بفترة ، ومن بيت متواضع يقيم داخل جدرانها رجل فقير
يحترف نحت الحجارة ، وصنع التماثيل . . فتحت الحياة باباً ضيقاً ،
ليخرج منه إلى الدنيا إنسان جاحظ العينين أفتس الأنف ، قد زهدت
قسمات وجهه في الوسامة ، فازاوّرت عنها ، وتلفعت بخشونة مستأنسة . .
وترقب الناس في لامبالاة ، شفثيه الغليظتين لينظروا ما وراءهما ، إن
كان وراءهما شيء .

واقترب الرجل في خطوات وثيدة ثابتة ، ونظرات حصيفة طيبة .
وتحركت شفثاه الغليظتان في أناة ، وتحولت ابتسامات الناظرين إليه ،
إلى قهقهات عالية :

— يا له من ساذج . . لماذا لا يفتح فمه ويريحنا . . ١٢

وواصل تقدمه ، خطوة ، خطوة . وفي الجوع سر غامض يدعوها
لتفسح له الطريق ، حتى إذا شقها صفتين طويلين ، وأشرف على

وجودها . بآده الوجوه المنتظرة بسؤال :

— لماذا لا تبحثون عن الخير ؟؟

— لأننا نعرفه ، يا سقراط .

— إذن ، فلماذا ما دتم تعرفونه ، لا تفعلونه . . ؟؟

— أليس يكفي أن نكون خبراء في حذقه يا سقراط . . ؟؟

— كلا ! ليس الخير في الخير من يعرفه ، بل من يملكه . . !!

ثم إني أشك في مجرد خبرتكم به ، ومعرفتكم له . . فهل تعرفونه حقاً . . ؟؟

— أجل ، أجل . نعرفه كما نعرف أنفسنا .

— إذن ، فأنتم تعرفون الغرض الحقيقي لحياتكم . . ؟

— نعم . . أن نعيش ، يا سقراط .

— لكن البهائم تعيش . .

— نعيش عيشة صالحة ، يا سقراط . .

وصاح سقراط وسط لجة من الحبور :

حسن هذا . . حسن كثيراً . . وإذن ، تعالوا نعرف ما هي المعيشة الصالحة . . فعندئذ — فيما أظن — سنكون قادرين على أن نعرف ، ما هو الخير .

ثم أخذه ما يشبه الرُعْوَاء ، فحنى رأسه قليلا ، وأسبل جفنيه ، وبعد حين عاد إلى وضعه الأول ، ليقول لهم :

« إنها الإشارة الإلهية تعاودنى . . إنها تأمرنى أن
أتعاون معكم على معرفة الحق ، لأنه لا سبيل للعمل
به قبل معرفته » . .

* * *

ماذا كان هذا الرجل سقراط . . ؟ ؟

وما علاقته بحديث عن محمد ، والمسيح . . ؟ ؟

أما علاقته بهذا الحديث ، فَجِدْ وثيقة ، وعماق قريب نتبينها .

وأما هو فأبو الفلسفة ، الذى علم الناس أن يبحثوا ، ويفكروا —
والذى لا يزال الفكر الإنسانى يحيا فى ضياء باهر من عقله ، ومن
عقول تلامذته ! . .

ولكن ، أليس عجبا أن أبا الفلسفة هذا ، الذى زلزل سكينته العقول
المهاجرة بسؤاله الدائمين : كيف . . ؟ . . ولماذا . . ؟ . . والذى أطلق عقله
الممحض الجوّاب ، يفضّ مغاليق الأسرار ، ويناقش المسلمات .

أليس عجبا أن يصغى لصوت آخر ، له طبيعة غير طبيعة العقل ، ذلكم
هو صوت الوحي . . أو ما أسماه هو : « الإشارة الإلهية » . . ؟ ؟

إن هذه أولى علاقات سقراط بحديثنا ، وليست آخرها . . وإن
فى حياته معالم كثيرة جديرة بأن نتعلاها ونشاهدها ، فلنعش لحظات فى
صحبة هذه الحياة .

لقد ازدهرت « أثينا » برجلها المضى ، وتحولت بذكائه الثاقب ،
وروحه الحى ، إلى حديقة زاخرة بثمار المعرفة وقطوفها الدانيات .

وآناء الليل ، وأطراف النهار ، أخذت شوارعها ، وأنديتها تشهد عقلا
فذا يعبرها دوما ويفشاها . كأنسا أمامه لغو « المشائين » وسفسطتهم .
وهاتفنا بأسمى ما فى الإنسان كى يستيقظ ويفيق .

ولإنه ليناقش الناس فى كل شىء . ويدير الحوار فى غير تهيب ، حول
الآلهة ، والفضيلة ، والخير ، والشر ، والجمال .. ثم لا يفتأ يذكر بأننا
نحمل داخل ذواتنا شيئا ، هو أئمن ممتلكاتنا .. شيئا عظيما وقويما ينتظر
منا أن نعرفه ونجيد معرفته : ذلك الشىء ، هو أنفسنا .

إننا لسنا هملا ، ولسنا نفص الدهر ، ولا نتاج المصادفات ، بل نحن
أبناء مشيئة كبرى اصطنعتنا لغرض كبير .. ونقطة البدء فى مسيرنا الطويل
هى معرفة أنفسنا .

ومضى ، يلحق العقل الإنسانى ، ويهذى القلب ، حتى جاء اليوم الذى
شق فيه على الأرض أن تتحمل وطأته الجليلة .. وتقدم بعض الشريرين كى
يضعوا الختام اللائق لحياة باهرة ، يراد لها من بارئها أن تكون مثالا
يُحتذى ، وعزاء يلتمس ، ومشعلا يهذى إلى خير ما فى الحياة من فضائل
باقية : الصدق .. والبذل ، والمثابرة .

ويجتمع قضاة أثينا ليحاكموا الفيلسوف بتهمة الهجوم على الآلهة .
وإفساد الشباب .

وساق الاتهام كل ما استطاع حشده من فنون الإفك وصنوفه .
وتقدم الإنسان الصادق ، الباذل ، الثابر ، وانفرجت شفتاه الغليظتان

فى غير بطة هذه المرة .. كان صاحبهما يعانى شوقاً إلى مصيره الذى، أسماء
الناس الموت ، وأسماء هو الانتقال ، أو السفر .

وفى هذه اللحظات أكثر من سواها ، وجد سقراط حقيقة وعرفها .
فأراد - قبل أن يمضى - أن يلخص كل دوره ومهمته . وأراد - قبل
أن يمضى - أن ينفخ فى هذا الدور من روحه الخلق بالخلود ليبقى
دوره حياً من بعده . يمشى فى الدروب مثلما كان يمشى .. ويفشى
الأندية التى كان يغشاها .. ويتحدث إلى الناس الذين طالما تحدث
إليهم .. ويلقى نفس الأسئلة .. ويؤدى ذات الرسالة التى كان صاحبه
يؤديها حياً .

هنا لك تقدم فى ثقة أزجت خصومه ، وقال :

— « يا قضاة أثينا .. »

« كم كان سلوكى سيبدو سيئاً ، لو أننى عصيت
الله فيما أعتقد أنه يأمرنى به ، فتكصت عن
أداء رسالة الفلسفة ، وتوقفت عن دراسة نفسى ،
ودراسة الناس ، وفررت مما كلفنى به خشية الموت ..
وأنا الذى حين أمرنى القواد فى « پوتيديا » ،
و « دليوم » أن ألزم موضعى لزمته ، وواجهت
الخطر والموت .. »

« أيها الأثينيون :

« إني أعبدكم وأحبكم . ولكن لأنى أطيع الله أكثر مما أطيعكم ، فلن أدع الفلسفة ما دمت حيا . سأواصل أداء رسالتى . سأدنو من كل من يصادفنى فى الطريق وأهيب به قائلا : ألا تنجلى يا صاح من انكبابك على طلب الجاه والثروة . وانصرفك عن الحق والحكمة .. وعن كل ما يسمو بروحك .. »

« إن من يحارب مخلصا فى سبيل الحق ، لن يمتد به الأجل إلى حين ، ومن أجل هذا ، فأنا لا أخاف الموت .. أجل إنى لا أخافه ، ولا أعرف طعمه . ولعله شئ جميل . غير أنى على يقين من أن هجران واجبى ، شئ قبيح .. ولذا ، فحين أخير بين الموت الذى يحتمل أن يكون جميلا ، وترك الواجب الذى هو من غير شك قبيح ، فإنى لا أتردد فى اختيار الأول فوراً . »

« بنى أثينا .. »

« منذ طفولتى ، يلزمى وحي .. هو عبارة عن صوت يطوف بى ، فينهاى عن أداء بعض ما أكون قد اعتزمت أدائه .. وإن جاز أن أسوق لكم تشبيها مضحكا ، لقلت إنى ضرب من الذباب الشيط ، أرسله

الله لهذه الأمة التي هي بمثابة جواد ثقيل الحركة .
ولا بد له في حياته من حافز ..

« أنا ذلك الحافز .. ولقد وجدت منى ناقداً منها ،
يثابر على فحص آرائكم ، ويحاول إقناعكم عن حق ،
بأنكم تجهلون بالفعل ، ما تتوهمون عرفانه ..

« وإن الخير الأعظم لكم ، هو أن تتركوني أواصل
رسالتي . أما إذا أردتم تبرئتي على أن أترك البحث
عن الخير ، وعن الحق ، فسيكون جوابي : أنا شاكر
لكم أيها الأثينيون .. ولكني أؤثر طاعة الله الذي
أعتقد أنه ألقى على كاهلي هذا العبء الجليل . »

وأخيراً ، يحكم على سقراط بالموت .. وتتهيأ له فرصة الفرار والنجاة .

وهنا ، مشهد آخر لا بد من وقفة تجاهه ..

مشهد نفر من تلامذته ، يجلسون إليه داخل سجنه ، ويخبرونه في
جذل ، أنهم أعطوا السجنان رشوة وافق بمدها على تهريبه . وأنهم هيأوا له
أسباب السفر إلى « تسالي » حيث يعيش هناك مع رسالته الكبرى .

وكأنما حسبوا أنهم يزفون إليه بشرى . ! وما كادوا يفرغون من
حديثهم ، حتى مضى على طريقته يفند رأيهم فى أناة ، كأنه معلم فى مدرسة .
وقته متسع ، وفرصته مواتية . . !

وليس محكوماً عليه بالإعدام ، سيمطى بعد حين قريب كأس السم
ليتجرعه ، ويسيفه . . . ! ! !

— « .. ولكن لماذا أهرب يا — أقریطون —
من الموت ؟؟ طبعاً ، لأظفر بالحياة . .

حسن هذا .. وإذن فلنبداً بأن نعرف ، ما الحياة .. ؟ »

ثم ينثال حديثه الوائق العذب ليخبرهم أن مجرد الحياة ، أمر لا يعنى
الرجل العاقل . . وإنما تهمة فقط ، الحياة التى تلتزم الصواب . فهل
الهروب صواب .. ؟؟

— « .. ثم كيف أستطيع — يا أقریطون — إذا
ارتكبت رذيلة الجبن ، أن أتحدث عن فضيلة
الشجاعة » .. ؟ !

ويقتنع تلامذته . بل ينجلون . .
وحين يسألونه ، على أى نمط يجب أن يدفن ؟
يجيبهم :

« على أى نمط تشاءون . إنكم ستدفنون الجسد وحده . .

أما الروح . فذهبة إلى مكان يبعث فيها السرور .
هناك بين المباركين .. !
لن أمكث بعد مماتي ...

وفي الميقات المعلوم . يحاء له بكأس صغيرة ، تحمل في ذؤُوبها ، منيته .
فيأخذها بيد ثابتة ، ويدفعها إلى فمه .. ثم يتمهل قليلا ريثما يدعو « اللهم
اجعلها رحلة مباركة سعيدة » .

ويتجرع السم .
ويموت سقراط .

أو على حد تعبيره هو : يموت جسده سقراط .. !

لماذا بدأنا موضوعنا بهذه البداية الطيبة . ؟
ومرة أخرى .. ما علاقة سقراط بحديث عن محمد ، والمسيح . ؟ ؟ ؟
إن الذين تفتحت بصائرهم على قسَمات هذه الحياة التي عرضناها في إيجاز
شديد ، لن يجدوا أنفسهم في حاجة إلى سؤال كهذا .
* فسقراط فيلسوف لاني . وهو يعلن أنه لن يذر الفلسفة ومحاوره
العاكفين على أساطير الأولين ما دام فيه نفس يتردد .
* وهو لا يسأل الناس على تعليمهم أجراً ، ويرفض كل مشوة
مادية تقدم إليه .

* وهو كفيلسوف . يهيمه أن يعرف .. وأن يجمع معارفه بنفسه .
ويجهد العقل المتحرر .

* ثم إنه كان يحمل عقلا شائخاً وشاهقاً لا يتلقى ، وإنما يناقش ..
ولا يقلد ، لكنه يخلق .

* وهو ضد الأحكام الجاهزة ، والآراء المسبقة . ولا يرضى للناس أن
يقولوا - ولو للصواب ذاته - سمعنا وأطعنا .. بل يجب عليهم أن يقفوا ..
وينظروا .. ويسمعوا .. حتى إذا تبين لهم أنه الحق أخذوه وعانقوه .
* وهو لم يقل للناس : « اعرفوا ربكم » بل قال لهم ، وفي إلحاح
دائب ذكى : « اعرفوا أنفسكم » .

سقراط ، إذن ، رجل عقل يستعمل عقله في أوسع نطاق .. ويدعو
الناس لاستعمال عقولهم . وإنه ليحترم كل ما للعقل من حق في المناقشة .
والمعارضة . بل وفي الشك .. ومع هذا ..

* فهو يصنى كثيراً لصوت آخر غير صوت العقل . هذا الذى أسماه
« الإشارة الإلهية » أو « الإشارة المقدسة » أى أن الفيلسوف الذى جعل العقل
مصدر تفكيره .. قد جعل الوحي أو الإلهام الضاغط موضع احترامه وتبليته ،
* وهو أيضاً ، يفسر الحياة تفسيراً دينياً ، فليست دنيانا هذه هى
المنتهى .. بل واحة في الطريق . وليست نهايته .

ويفسر الموت بمثل ذلك ، فهو عنده دفن للجسد وحده ، أما الروح
فلها الخلود في عالم يسرّ الصالحين .

* وهو يحسُّ للموتى قيامة وبعثاً .. ينهضون من قبورهم ، ليستأنفوا رحلتهم وحياتهم .

ألم يقل لأقربطون : « لن أمكث بعد مماتي » ١٩٠ !

* وهو قبل هذا ، يؤمن بألوهة طيبة ، وربوبية قادرة ، تدعو الناس إلى معرفة الحق ، وفعل الخير .

وهكذا ، يتبدى لنا « سقراط » بذاراً جديداً مترعاً بالحياة ، تزرعه السماء في الأرض ، ليؤتي أشهى وأبقى ثمارها .

ويقف الفيلسوف ، هادياً يقرع أجراس الحياة العظيمة ، وسط بشرية غافية ، كي تلقى سمعها ووعياها ، إلى الرنين الصادق الذى أهلت مع هذا الرجل ، عصوره وأزماته .

ولسوف يظل العالم ثملاً — فى غير غيبوبة — بعدوبة ذلك اللحن السقراطى إلى ما شاء الله .

ولكن ، بعد خمسمائة عام من موت العازف العظيم وسفره ، سيفد إلى الحياة هاد جليل ، ومبدع فذ ، يمشى الهويناً فى دروب فلسطين ، وسهولها .

ثم بعد ستمائة عام أخرى .. يزور الدنيا .. هاد آخر جدّ عظيم .. يعبر شعاب مكة .. ويصعد فى جبالها متأملاً وضارعاً .. حتى إذ وجد اليقين الذى يبحث عنه .. وحتى إذا قال له الوحى : « قم فأنذر » .. نهض فى الناس نذيراً وبشيراً ..

ولكن إنسان أورشليم .. وإنسان مكة .. يختلفان عن إنسان أثينا

فالأخير ، يلبس رداء الفلسفة ، ومحمد والسيح ، يلبسان رداء الرسالة .
وهنا ، وبعد الحديث القريب الذى سقناه ، نلتقى بالحكمة التى نبحث
عنها . والتى من أجلها وقفنا هذه الوقفة مع سقراط .
فالفيلسوف الذى ترك فى الفكر الإنسانى كله طابعه الأصيل الفريد ،
والذى لا يزال مكانه من فلاسفة عالمنا ومفكريهم ، مكان الأستاذ ،
والمعلم .. كان يؤمن بالغيب .

يؤمن بالله .. وباستئناف الحياة بعد الموت .. وبوحى يتلقاه المصطفون
الأخيار عن الروح الأكبر المشع فى هذه الأكوان العظيمة .
صحيح أنه حارب الآلهة ، ولكنه لم يحارب الإيمان الذكى ..
والآلهة الذين حاربهم هم أولئك المتربمون فوق جبل « أولمب »
يتعاركون ، ويتبادلون كل ما يتبادله صغار الناس من أحقاد ، ومؤامرات ،
ومكايد .. !

شهر « سقراط » بهذا النوع من الآلهة ، وبهذا الطراز من الإيمان ..
واحتفظ بإيمان ذكى بألوهة طيبة عظيمة .

وفى أى العصور مارس الفيلسوف الكبير المتمرد ، إيمانه ذاك .. ؟
فى أعظم عصور العقل السالفة ، معرفة وإشراقاً .. العصر الذى
استطاع العقل الإنسانى خلاله — ومن غير أن تكون معه مختبرات
وأجهزة — أن يحسّ حركة الأرض ، وكرويتها ، ويستشرف داخل
الذرات التى تبدو ضئيلة تافهة ، شمساً هائلة ، وطاقات مذهلة .
وإذن ، فعندما يحى ، بعد رحيل سقراط بزمان يطول أو يقصر من يدعو

الناس للإيمان بالغيب العظيم ، فإن واجبه أن يتقوا .. وينظروا .. ويسمعوا
أجل ، لا أقل يومئذ ، من أن يسألوا أنفسهم :
لماذا لا يكون هذا حقا ..

ألم يحدثنا بمثله من قبل ، رجل خارق الذكاء ، صادق الخلق ، كبير
الإيمان بالعقل ، وبالمنطق .. شديد الوله بالحوار ، وبالشك ، اسمه : سقراط .. ؟
أجل . لماذا لا يكون حقا .. ؟

أو على الأقل ، لماذا لا نصغى إلى ما يقولون .. ؟
صحيح أن سقراط ، حدثنا بأشياء ، اكتشفنا فيما بعد خطأها .. بيد
أنها كانت من تلك التفاصيل التي تشبه الافتراضات التي يتوسل بها
العلماء لا اكتشاف نظرياتهم حتى إذا برزت النظرية كحقيقة حية لم يعد
للك الافتراضات قيمة ، ولم تؤثر « وهميتها » في قيمة النظرية وصدقها ،
على أن جميع القيم التي والها سقراط ، وآمن بها وبشّر .. كالحق ،
والخير ، والجمال .. لا تزال ، وستظل خالدة ، صادقة ، شائعة ، لا يزيدها
العلم إلا ألقاً وقوة .

فلم لا يكون الإيمان كذلك ، سيما والعلم لم يستطع أن يصل إلى
يقين بنقيضه ..

وبعد .. ففي سقراط ، التقي العقل ، والوحي ..
وفي سقراط : بشّرت الفلسفة بالدين ..

الفصل الثاني

الهداية، ترسل سفائننا

أكان سقراط وحده يرفع لواء الخير والمعرفة ويقرع الأجراس :
كلّا .. ففي أقطار شتى من الأرض ، كانت الهداية ترسل سفائنها
وفي الأفق العالى البعيد ، كانت الشرع تتعانق ، وفي عباب الحياة
الإنسانية ، كانت السفن تَمْضى ماخرة ، هادرة ، تحمل للناس رسالات
الهدى ، وفلسفات الخير والصلاح .
فَقَبِلَ « سقراط » بمئات كثيرة من السنين ؛ كانت هناك في
مصر القديمة ، وفي آشور ، وفي بابل ؛ محاولات مُثابرةٌ لاستجلاء
الرشد والخير .

وكان « اخناتون » في مصر القديمة يعلن أن الإله واحد .. ويقاوم
تعدد الآلهة وعبادة الأوثان . ويناجي إلهه الواحد — آتون — بقوله :
(أنت جميل ، وعظيم ، ومتألىء ، ومُشرق فوق
كل أرض .

وأشعتك تحيط بالأرضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك) .
وكان الفكر المصرى القديم يملأ أرضه وبلاده هتافاً بـ«قيم الحق
والخير ، داعياً للعدل ، والاستقامة ، والمساواة ، والرحمة ، ومُبشراً
بالخلود في الدار الآخرة .

وكان ينادى الناس باسم الإله ، فيقول :

« لقد صنعتُ الرياح الأربع ، لكي يتنفس منها
كل إنسان كزميزله ..

« لقد صنعتُ مياه الفيضان العظيمة ، لكي يكون
للفقير فيها حق كالعظيم ..

« لقد صنعتُ كل إنسان مثل غيره من الناس .. »

وكان يقول لهم :

(إن الصدق جميل ، وقيمته خالدة)

(لا تتكلمن مع إنسان كذبا ، فذلك ما يمتقه الله ..
(ولا تَفْصِلَنَّ قلبك عن لسانك ، حتى تكون كل
طُرُقِك ناجحة) .

وقبل سقراط بثلاثمائة عام ، وتحت سروح المملايا في شمالي البنغال ،
كان فتى وسيم الطلعة ، ريان الشباب ، يرفل في كل ما تحفل به الدنيا
من مناعم ، ومطاعم ومباهج ، ومسرات .. وذات يوم .. وهو يمتطي
صهوة جواده ، ويزاول نزهته اليومية ، أقحم القدر على طريقه بعض
نماذج من البشر ، ينطوي أصحابها على أسى ممض فاجع .. !

ولكأنما كان هذا المشهد ، نداء الغيب لـ « جوتاما » أو « بوذا »
كما سيدعى فيما بعد .

ففي أمسية ذلك اليوم ، أنفذ في هدوء وعزم ، ما أسره في نفسه
ضحى .. وفي بهجة لليل ، انساب كالأنفاس الوادعة من فراشه وقصره
ودنياه الباذخة ، وخرج ومعه خادمه ، حتى إذا بلغا شاطئ النهر ، قطع
« بوذا » ذوائبه .. ونضاعفه ثيابه المترفة ، وما يتحلى به من لؤلؤ وذهب
وأعطاهما جميعاً خادمه ، وأمره بالعودة ، بينما آخذ سبيله إلى مناسك
العابدين ، شمال جبال « الفنديا » .

وهناك شق على نفسه ، وكلفها من العبادة ما يطيق ، وما لا يطيق ،
وأسلمها لصيام مرير ، وزهادة بالغة .
بيد أنه لم يلبث أن اتهم نفسه بقتل نفسه .. ومن ثم ، فقد شرع
يعتدل في نسكه ، وفي إخباراته .

وذاث يوم .. رن في روعه نفس الصوت .. الإشارة الإلهية ..
أو الوحي .. أو الإلهام .. سمّوه ما شئتم .
المهم أنه نداء يحس أصحابه أنه قادم من فوق .. من وراء ما يحسون
وما يبصرون .

وأصغى « بوذا » ثم أصغى ، وأصغى .
وأخيراً ، عاد يث في الناس حكمته ورؤاه .
فماذا كانت هذه الحكمة ؟
هي ذى .. ولا تزيد :

— « أيها الناس ، انبذوا الأنانية » .

إن « بوذا » يهتف بالإيثار وخدمة الآخرين ، وهو لا يعتبر نفسه
مستثلاً عن أن يعرف كثيراً عن سر الإله .. بل هو مستول عن أن
يعرف كل شيء عن بؤس الإنسان .. !!
وهو يدعو الناس ، لينبذوا أطعاهم ، وأنانيتهم ، كي يجدوا « النرفانا »
في انتظارهم .

والنرفانا ، عند بوذا هي حالة السمو والصفاء التي يجدها ويبلغها الذين
يغادرون أنفسهم سعياً وراء الحكمة والحق ، والذين يتفارقون على أنانيتهم
ويبذلون من ذوات أنفسهم في الخير العام .
إنكم تجعلون من ذواتكم سجونا ضيقة مظلمة قاتلة ، حين تعكفون
على أنفسكم وحدها ، وتعيشون لأنفسكم وحدها .
وإني إذ أدعوكم إلى « النرفانا » لأدعوكم في نفس اللحظة ، إلى أن
تخطموا عنكم أغلالكم - وتغادروا سجونسكم التي تحتويكم داخل ظلماتها .
عاونوا الآخرين ، وابسـطوا إليهم قلوبكم بالمودّة ، وأيديكم
الإيثار وبالرحمة .

بمثل هذا ، مضى بوذا يبشر ، ويدعو ، متوسلاً بالمعرفة ، وبالأمل
مبشراً المصغين إليه ببلوغ دُرَى عالمهم المنشود .. عالم النرفانا .

* * *

وفي نفس الزمان .. كان هناك في الصين رائد جليل يقول :
« حياتي هي صلاتي » ..

كم هي فائنة وقيمة ، هذه العبارة .. وإنما لتدلنا من فورها على موضوع حياة قائلها ، ودعوته .

إنه « كنفشيوس » .. حصر جهده في تجديد حياة الناس ، وضبط سلوكهم وفق ما يختاره لهم من عادات ، عرف ، وتقاليد .
ولقد هجر وظيفته ، إلى « دار الحكمة » التي أنشأها في ولاية « لو » .

وظل ينضج فكره ، ويجمع نفسه ، ويحاول اكتشاف دوره ، حتى أفضى إلى ما يريد .

وهناك خرج إلى الناس بتعاليم ، كل غرضها ، خلق الرجل « الجنتلمان » .

الرجل الأنيق النظيف ، في تصرفاته ، وفي حركاته .. في طريقة أكله ، وفي طريقة سيره ، ونومه ، وفي طريقة حديثه .. وفي حياته كلها .

وحين يزخر الوطن بهذا الطراز من أبنائه ، يصير قادراً على صبغ نفسه بالصبغة الجيدة التي يريد لها « كنفشيوس » .

وحين تنجح التجربة داخل الصين ، تصدر إلى خارجها .. وهكذا يقر « كنفشيوس » عينا ويهدأ بالاً ، تجاه فوضى السلوك والنظم التي تؤرقه كثيراً ، والتي قال عنها ذات مرة :

« إن هذه الفوضى التي تعم الدنيا ، هي للشئ الذي يحتاج إلى جهودى » .

كذلك كان هناك أنبياء الشرق الأدنى . . يجوبون القفار والنجوع ،
هاتفين بالصلاة ، وبالبر ، وبالتضحية . . منقضين بغضبهم الصاعق على
الاستغلال واحتكار الثروات .

« . . . من أجل أنكم تدوسون المسكين . .
وتأخذون منه هدية قمح . . بنيتم بيوتاً من حجارة
منحوتة ولا تسكنون فيها ، وغرستم كروماً شهية
ولا تشربون منها .

« ويل للمستريحين في صهيون . . . أأنتم المضطجعون
على أسرة من العاج . . والتمددون على الفرش ،
والآكلون خرافاً من الغنم ، وعجولاً من وسط
العصيرة . . الهادرون مع صوت الرباب ، الشاربون
من كؤوس الخمر . .

« كرهت أعيادكم ، حتى تدعو الحق يجرى كالمياه ،
والبر يجرى كنهر دائم . . ؟ »

ولا يكاد هذا الهدير يهدأ ويكفّ ، حتى يجلجل في الأفق ، وبين
الروابي ، وفوق السفوح ، نذير جديد يهتف به « اشعياء » :

« . . . ما لكم تسبحقون شعبي ، وتطحنون
وجوه البائسين . . ؟ »

« ويل للذين يصلون بيتاً بيتاً . . . ويقرنون

حقلاً بحقل ، حتى لم يبق موضع ، فصرتم أسكنون
وحدكم فى شطر الأرض . . . !

« ويل للذين يقضون أقضية الباطل ، ولا يكتبه الذين
يسجلون زوراً ، ليصدّوا الضعفاء عن الحكم ،
ويسلبوا حق بائس شعبي . . . لتكون الأرامل
غفيمتهم ، وينهبوا الأيتام . . . !
» يقول الرب :

« اغتسلوا . . . تنقوا . . . كفوا عن فعل الشر . . .
تعلموا فعل الخير ، اطلبوا الحق ، أنصفوا ، اقضوا
للتييم ، حاموا عن الأرملة » .

ثم يلقى نبوءة وأملا ، فيقول :

« ها هي ذى العذراء ، تحبل وتلد ، وتعطى
ابناً ، يحل فيه روح الرب . . روح الحكمة
والفهم . . روح المشورة والقوة . . روح المعرفة
ومخافة الرب . . .

« يقضى بالعدل المساكين ، ويحكم بالإنصاف
لبائس الأرض .

« يسكن الذئب مع الخروف ، ويربض مع
الماعز . يطعمون سيوفهم سككا ، ورماحهم
مناجل . . .

« لا ترفع أُمَّة على أمة سيفاً ، ولا يتعلمون الحرب

فيما بعد » . . !

أى إنسان كان إشعياء . . ؟

وما هذه المودة الدافئة العميقة التى يكتنّها للعالم وللسلام . . ؟ !

هل نطمع نحن اليوم ، بل وبعد عشرات السنين ومثاتها ، فى أكثر
من هذا . . ؟

أن تتحول السيوف إلى عملة . .

وتتحوّل الرماح إلى مناجل . .

وبعبارة واحدة ، تتحول ميزانيات الحروب وبيع الموت إلى تعمير ،
وإنعاش ، ورخاء وسلام دائم مقيم .

هكذا أَلقت الحياة سمعها لرواد من طراز لا نألفه نحن اليوم فى
أجيالنا . . . ولعل هذا مما يباعد أحياناً ، ويفصل بيننا وبينهم بخطوط
وهمية مخادعة .

لكن حين نستأنى ، ونخلص فى محاولتنا الفهم والمعرفة ، نجد الدور
الجليل الذى قاموا به ينادينا ، وينادى فينا كل ما نملك من قدرة على
الاحترام والتبجيل .

إننا إذ نصغى اليوم لرجال من أمثال هيجل ، واسبينوزا ، وابن رشد
والفارابى ، وسانتا يانا ، وابن سينا ، وشكسبير ، والمعريّ ، وكوبرنيكس
وجاليليو ، ونيوتن . . فإنما نفعل ذلك إكباراً لما أسدوه لعقولنا ،
ولو جداناتنا من علم ومن نور . .

وهذا جميل . . ولكن ليس جميلاً أن يفتننا روح العصر الذى يمنح
عن الغيب إلى الشهادة ، وعن النبوة إلى التجربة .

ليس جميلاً أن يصرفنا روح العصر هذا ، عن أن نبذل احتراماً صادقاً
ونصفى فى تدبر وتعلم لأولئك الرواد الأوائل الذين أخذوا على كواهلهم
المستبصلة ، تطوير الحياة الإنسانية عن تطوير العقل الإنسانى وبث رؤى
الخير والشجاعة والصالح فى الضمير البشرى .

ولقد يكون بعضهم سلك شعاباً يشق علينا اليوم أن نسير فيها ، لكنهم
فى الإطار العام لدعواتهم ومناهجهم ، لم يكونوا إلا رواداً أفذاذاً ، ورسلاً
صادقين كباراً .

ومن جماع هتافاتهم الرشيدة المنبعثة من أوطانهم المتباعدة . . .
خطت تحوم وطن واحد للفضيلة وللحق ، وأيضاً للعالم الواحد الذى
سينتهى حتماً إلى الفضيلة وإلى الحق فوق صعيد ذلك الوطن الواحد
الكبير الظاهر .

لقد كانوا — أئابهم الله عنا خيراً — ذوى فضل كبير فى جمع البشرية
بذاتها ، وفى لقاءها بواجباتها التى أفضت ممارستها إلى ما ظفرت به فيما
بعد من تفوق عقلى ، ومن تفوق أخلاقى .
وإننا لنسأل :

أهؤلاء الذين لم يؤخذ على سلوكهم شبهة . . ولم تحم حول عقولهم
ظنّة ..

الذين عاشوا وتألّوا ، وكابدوا الصعاب ، وواجهوا الخطر ، من
أجل الناس ، لا من أجل دنيا يصيبونها ، ولا منفعة ينالونها .. !!
والذين خرجوا من ديارهم ، ومن أنفسهم ، ومن أموالهم .. وتبتّلوا
لدعواتهم ، وأخلصوا أصدق الإخلاص لواجباتهم .. !!
هل كانوا .. وهل كان كفاحهم العظيم .. وأيامهم العاملة ..
ورؤاهم المضيئة .

كل ذلك .. أكان هذراً .. أكان لغواً ، وباطلاً ..
أبدأ .. أبدأ .. أبدأ .

ولإنه لفروض علينا من أنفسنا السوية ، أن نحترم كفاحهم النبيل
الجليل ، ونصنّى للحكمة الحلوة النافعة التي لا تزال تشع بها أمّيات
تعاليمهم .. والتي انطلقت ذات يوم لأول مرة من هناك .. من أثينا ،
والصين ، والهند ، وأرض الشام .. ومن قبل .. من هنا .. من مصر
القديمة حيث صيغت على نسق عال وثيق ، فلسفات التوحيد ، والبعث ،
والخلود ، وحيث رسمت للأخلاق ، وللسلوك مناهج قوية ، بقدر
ما هي مستقيمة .

والآن ، اقتربوا .
في خشوع ، وتقوى .
إن الباب الكبير يُفتح . ليخرج منه إلينا .. إلى البشر جميعاً
م ٣/ معاً على الطريق ٣٣

أخوان حميدان .. جاءا يلخصان دعوة الخير كلها . ويعطيانها في إطارها
الديني . تعبيرا عنها النهائي ..
انظروا.:

ها هما — في ضياء باهر — قادمان .

عيسى .. ومحمد .

ابن الإنسان ..

ورحمة الله للعالمين ! ..

أما « عيسى » فسيملخص لنا كل فلسفات المحبة ، ودياناتها ،
ورؤاها .. ثم يمنحنا إياها في تركيز حاسم .. في دعوة ميسرة ..
في سلوك وديع .

وأما « محمد » فسينفض عن الإنسان آخر أغلال التبعية ، والخضوع ،
ويعلم في شمول واع حقيقة التوحيد .

وهكذا ، تلتقي البشرية منهما ، آخر دروس إعدادها ، وتتسلم وثيقة
رُشدها ، لتمضي بعد هذا في طريق الحياة شُجاعة مبصرة .

تجربة الوحي في قلبها ، ونور العقل في رأسها .

والله من قبل .. ومن بعد .. يعينها ويهديها .

الفصل الثالث

معاً
على طريق الربِّ

في حجر أم بارّة ، بدأ المسيح ، كما بدأ محمد ، أولى ساعات الحياة .. وفي شباب متأمل ، ورِع ، طالع كل منهما رؤى مستقبله ، واستجلى غوامض سُبْحانه ..

* وكما تلقى « المسيح » بشراه الحافزة من رجل صالح ، حين قال له وعينه عليه لا تريم :
« يَحْيَى من هو أقوى مني » !

* كذلك ، تلقى « محمد » بشراه الحافزة من رجل صالح ، حين قال له وهو مُصْنَع :

« هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى » . !

* وفي قرى ظالمة لنفسها ، صاحبة شهواتها ، سار كل منهما عفّاً نقيّاً .

* وأمام مكاييد اليهودية المتآمرة الغادرة ، وقف الرسولان يتحديان رِجسها ، ويكابدان بأسها . !

* وأريد للمسيح أن تنتهي حياته الطاهرة على صورة تُشبع الأحقاد الملعونة الملتئمة ، لخراف إسرائيل الضالة . !

* وأريد للرسول ، أن تنتهي حياته أيضاً بسببٍ من غدر اليهودية المتآمرة ؛ فدست امرأة يهودية السم في طعامه . !

* وقال « المسيح » حين أحاط به لئوم الكهنة وكيد الكائدين :

« اغفر لهم يا أبتاه ، لأنهم لا يعلمون ما يفعلون » .
* وقال « الرسول » ودمه يتفجر تحت قسوة الحجارة التي يُقذف بها
من كل جانب :

« اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .
أ كانت هذه المشابهة عفو الصدفة ، أم هي ثمرة شيء يشبه القانون العام
يُصنع على شاكلة هذا الطراز الجليل من الهداة . . . ؟ !
إننا نريد أن نقرب من محمد ، ومن المسيح أخيه ، ونريد أن نبصر
الرؤى الصحيحة التي رأيا بها مستقبل الإنسان ، ومستقبل الحياة . فإنهما
في هذا لنظيران مثامهما نظيران في شدة ولائهما للإنسان وللحياة .
والآن ، علينا أن نعرف ، ماذا كانت البيئة التي تنتظر كلا منهما ،
وتتعجلاه الجحيم . . . عسى هذا أن يهدينا إلى حاجة عصرنا لهما ، ولروح
الخير الذي تعبنا في بثّه وإذاعته .

فلسطين ، أرض تحمل شعباً متعدد القسّمات ، يعاني أهلها حقداً كثيراً
على الغزاة الذين يسومونهم سوء العذاب . . . وهم لهذا ، يهربون من الواقع
المض إلى رؤى غدير مرقوب ، حيث « يحيى ملك اليهود ومخلصهم » ! !
إن جنود روما ، تشوى الأبخار بسياط كاوية ، والخلوذات اللامعة
التكبرة تقذف بالرعب في أفئدة القطيع . . . والضرائب الفادحة المبهظة

تجبي من ذوى الخصاص والكادحين ، لكى ترفع إلى السيد الماجد
« قيصر » المتربع على عرشه الباذخ فى « روما » ١١

والجاثون بين يدى هذا الواقع الأليم ، أبناء شعب تشرّد فى الأرض
وفى القرون ، وعانى من التمزّق والحرق ، ما جعله يتلمس فى شوق بالغ
قدوم من يخلصه .

كذلك عانى من تعدد الأسياد ، وتعدد الغزاة الذين أنقضوا ظهره ،
ما جعله يهفو إلى عقيدة التوحيد ، ويهتف بها .

ترى ، إن جاءه مخلصه يؤمن به ، أم يعدّ له صليبا كبيرا . . . ؟
وإن دعى إلى عبادة الله الأحد ، يطيع ؟ أم يُشرك به الذهب ،
والمال . . . ؟

لم تكن تلك أحاسيس اليهود القابعين فى فلسطين وحدهم . . . بل
والبذورين فى بقاع كثيرة من الأرض .

هناك فى أسبانيا ، وفى أفريقيا ، وفى جوانب البحر الأبيض المتوسط
وفى جنوب روسيا ، وبعض بلاد الإمبراطورية الرومانية .

غير أن المقيمين منهم فى « أورشليم » وما حولها كانوا أكثر معاناة
للألم وأكثر تعلقا بالأمل . وأيضا أكثر اضطرابا وبلبلة وإباقا .

كان « المجتمع » هناك — إن جاز هذا التعبير — نهبا لتقاليد خالطها
الكثير من العفن ، والنفاق ، والنفعية . . مما جعل الأنبياء يكثرون
وتكاد صيحاتهم المنذرة ، تزحم جو السماء .

كان اليهود الفرّيسيون يقفون حراسا عنيدين على طقوس شكلية خالية من الروح ، متجاهلين لُباب الشريعة ، وصميمها .

فالسبت — مثلا — مُقدَّسة فيه الراحة ، بل البطالة ؛ حتى لقد ترك آباؤهم ذات يوم « أورشليم » تسقط في يد أحد الفزاة السلوقيين لأنه هاجمها يوم السبت ، وهم يوم السبت لا يعملون ، حتى حين يكون هذا العمل دفاعا واجبا عن حياتهم وأنفسهم . . . ! !

وهم أيضاً — الفرّيسيون — يهتمون أعظم الاهتمام بغسل الأيدي قبل الطعام ، لامن أجل النظافة ، بل لمجرد أنه طقس ديني .. ثم لا يهتمون بمآل هذا الطعام ، حلالا كان أو حراما ! !

وطهارة القلوب لا تنال من اهتمامهم معشار ما تناله طهارة الأيدي ، وعمّا قليل سنبصر خبث صدورهم وطواياهم وهم يحاربون المسيح ويفتنون في الكيد له .

واليهود هناك ، يمنحون أنفسهم من الامتياز ما يجعلهم فوق البشر ، ويرون أنفسهم « شعب الله المختار » ! ويزعمون أن الله قد وعد آباهم « إبراهيم » مُلكاً عظيماً ، يحكمون من خلاله جميع الأرض ، وجميع من عليها ! !

ثم هم يعيشون في دائرة مغلقة ، منطوية ، متزمّنة .

وهم في أورشليم يُشكلون « مصرفاً » جشعاً ، يؤله المال ، ويحتكر الثروة ، ويضرب الفقراء والمعوزين بسياط الاستغلال ، والربا ، والبغى .

لا يعرفون عن المقدسات إلا أنها السبيل لحفظ أوفى من الكسب الحرام
وإنهم ليباغون في غرورهم الصفيق الحد الذي يقولون عنده : « إن الله فقير ،
ونحن أغنياء » !!

وهم جماعة تفكر . بمخاوفها ، وبحرصها ، وبأنانيتها ، فيجىء تفكيرها
من الانحراف ، والقسوة ، بحيث يبدو أصحابه وكأنهم ليسوا على الإطلاق
بشراً .

لقد قتلوا أنبياءهم ، وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا
فريقاً كذبوا ، وفريقاً يقتلون .

وإنهم لأسانذة في فن الجريمة . . وفي أعناقهم وأيديهم بقع كبيرة من
دم « زكريا » ومن دم « يحيى » ومن دماء زاكية لأنبياء وشهداء
كثيرين !

وهم — وإن تظاهروا بالغيرة على الشريعة — لا يضعون شيئاً من
حقائقها موضع التنفيذ .

والذى يعنيه من الدين كله ، شىء واحد : هو مُلكهم المنتظر حيث
تجد نزواتهم الجامحة في السيطرة وفي الاقتناء فرصة سعيدة .
وإذا كانوا مشغوفين بمجىء « المخلص » ، فليس لكي يخلصهم من
خطاياهم ، ويهذى إلى الله نفوسهم وسلوكهم .. وإنما ليضاعف الثروة
في جيوبهم !!

من أجل هذا ، رحبوا بالمسيح بعض الوقت فور ظهوره ، فلما تبين لهم

أنه لن يكون « السمسار » الذى يسلمهم الصفقة المنتظرة ، والمملك المرقوب
هَبُوا لعداوته وتواصوا على حربه !

وأخيراً ، فإن معظم القيم السامية - إن لم يكن جميعها - قد اختفى
من هذه البيئة وكان للكهّان فضل كبير فى هذا . .
وفى وحل الجشع ، وإلى حضيض الجريمة أخلد الناس الذين كانوا يومئذ
هناك . . .

ولو أن قوة تتمتع بما تشاء من ذكاء ومقدرة ، أرادت أن تتقدم
لإصلاح هذه الجماعة الضالة ، والتي لم تكن رغم مساوئها الكثيرة ، إلا
نموذجاً لكثيرين من سكان العالم أيامئذ ، فماذا كانت صانعة ؟

* تنشئ الجامعات ، وتملؤها بالأساتذة والمربين ، لتلقن فى مدرجاتها
هذه الخراف الضالة أسلوب الحياة الفاضلة ؟

* تتوسل بأجهزة الإذاعة ، والصحافة ، والنشر ؟

لم يكن شئ من ذلك قد وجد بعد . .

* إذن تصبهم فى قوالب سحرية ؛ يدخل أحدهم من أعلاها شريراً
فاسداً ، ويهبط من أدناها قديساً طاهراً ؟ !
ولا هذا . .

لقد اصطنعت السماء يومئذ أنجح الوسائل وأجداها ، فكان المعلمون
الصالحون الذين يبينون لهم الخير والشر ، ويميزون الخبيث من الطيب ،
ويقودونهم بكلماتهم الحارة الصادقة ، وبسلوكهم الفاضل الباهر إلى المحبة

والفضيلة ، ويُشكلون المجتمع على صنورة تمنحه قابلية التطور الصالح ،
والتقدم السديد .

هذا كان عمل الأنبياء والمرسلين ، قبل أن تخالطه إضافات الأتباع ،
وتحريف المفرضين .

وهذا ما سيجاوله المسيح حين يحىء .

ولكن ، قبل أن نشهد بجهته ، يحسن أن نلقى نظرة أخرى على العالم
كله ، فليس يكفي أن نعرف ماذا كانت « أورشليم » قبيل ظهوره ، دون
أن نعرف ماذا كانت كذلك ، وفي نفس الزمان ، طبيعة المرحلة التاريخية
للعالم كله .

فالمسيح ، ومثله الرسول ، لم يجيئا ليوقدا شموعهما في أورشليم وفي مكة
وحدما ، بل جاءا ليوقدا شموعهما للعالم كله .
ولقد كانا على وُجدان بهذه الحقيقة .
قال المسيح :

« جئت لأخلص العالم » .

وقال الرسول :

« إن الله أرسلنى للناس كافة . . وأرسلنى رحمة
للعالمين » .

ولقد حدث هذا فعلا ، ولم تبق دعوتها داخل القرى الصغيرة ، بل

تفتحت لها أبواب القارات الكبيرة ، ولا تزال الديانتان ، المسيحية والإسلام ، تغمران الأرض .

وهذا شيء طبيعي ، فللأفكار قوة على النفاذ والزحف أكثر مما للجيوش نفسها . . سيما تلك الأفكار الصادقة الكبيرة التي تحمل من أماني البشر ، وتحقق من احتياجاتهم ما هم إليه مشوقون .

فما الوضع الذي كان يسود العالم يومذاك ؟ ؟

كان الشرق الأقصى يمارس فلسفاته الخاصة ، وتتطور النظم في بلاده تطورا عنيقا تارة ، وهادئا تارة أخرى .
ولكن ظاهرة تثير الانتباه حقا ، كانت أيامئذ تعلن عن نفسها في ذلك الركن القصي من الأرض .

ففي الصين التي كانت تعيش وراء سورها البالغ طوله ألفا وخمسمائة ميل . . والتي كانت قد وُحِّدت ولاياتها الكثيرة المتفرقة تحت لواء حكومة مركزية واحدة .

الصين تلك ، كانت تمارس تجربة هائلة بدأها الإمبراطور «وودي» ثم أعاد تطبيقها بعد نكسة طارئة الإمبراطور «وانج مانج» .

وتنظم هذه التجربة : إلغاء الرق وتأميم الأرض الزراعية تأميما كاملا شاملا ، وتأميم الملح ، والحديد والمناجم ، وتثبيت الأسعار !

أما في الشرق الأدنى ، وأوربا ، فقد كان هناك استثمار وييل ، ورقٌ بشع !

فالإمبراطورية الرومانية ، على الرغم من محنها ، وتمزقاتها الداخلية ،
ابضت على أعناق رعاياها ، في بلاد غالة ، حيث شمالى إيطاليا ، وجنوبى
فرنسا ، وفى بريطانيا ، وفى النمسا ، والمجر ، ورومانيا ، ويوغسلافيا ،
وبلغاريا ..

فى إسبانيا ، وشمال إفريقيا ..

فى مصر ، والشام ..

فى أقطار أخرى من الأرض ، سيطرت عليها . . .
وكان سلوك روما مع الخاضعين لها عجيباً ، فهى تُصدّر إليهم عبادة قيصر
وتأخذ منهم أرزاقهم ، وما تنتج بلادهم من ثروة وخير . . .
ولا بأس لدى روما بأن تسمح لبعض المقاطعات بإرسال ممثلين لها فى
مجلس الشيوخ الرومانى ، كما حدث حين سمحت بهذا لبعض من
أشراف فرنسا ..

تماماً ، كما تفعل فرنسا اليوم مع الجزائر إذ تعتبرها مقاطعة فرنسية نظير
التصدق عليها بإعطائها حق التمثيل فى جمعيتها الوطنية . . . ! (١)

ولم يكن الاستعمار الرومانى ممثلاً فى جيوش « روما » وحدها .. بل
كان يؤازر القوة والسلاح ، فريق من الاحتكاريين العتاة ..
فقبل ميلاد المسيح بستة وأربعين عاماً ، لا غير ، كان للاحتكار الرومانى
فى الأندلس وحدها ، ثلاثمائة مصرف .. تنزع من أسبانيا : ذهبها ،

(١) كتب هذا قبل أن تظهر الجزائر باستقلالها .

وقصديرها ، ونحاسها ، وفضتها ، وحديدها ..
كما كان الاحتكار الروماني ، يعاونه الاستعمار الممثل في الحكومة
والجيش ، يسيطر عن طريق قانس على تجارة المحيط الأطلسي مع غربي
أفريقية ، وفرنسا ، وبريطانيا ..
وفي مراحل مختلفة من سيطرة « روما » كان استعمارها يتسم بقسوة
لافحة غليظة .
فمثلا ، كان الرومان يصطادون أهل « كورسكا » بالكلاب ،
ليبيعوهم عبيداً .. !
وكانت الضرائب ، تفرض على الأرض ، وعلى الأملاك ، وعلى
الحيوانات ، وعلى العبيد .. !
صحيح أن الاستعمار الروماني ، كان ينشد العمران ، ويقيم المشاريع
العظيمة في كثير من مستعمراته تلك ..
ولكنه كان يفعل هذا ، ليزداد دخله منها .. أي أنه كان يُسمن
البقرة ، لتدرّ له مزيداً من الحليب .. !
ففي شمالي أفريقيا — مثلاً — أقام السدود العالية لاختزان
الزائد من المياه .. وغرس أشجار الفاكهة والزيتون ، حتى قيل إن
المسافر كان يقطع الطريق، من طرابلس إلى طنجة تحت ظلال أشجار
الزيتون ..
ولكن لمن كانت هذه الخيرات تجبي وتحمل .. ؟ ؟
لسادة روما وشعبها ..

أما أصحاب البلاد الحقيقيون ، فجرد فَعلة وعبيد .. !
ولقد أراد « أغسطس قيصر » ذات يوم أن يكافئ بعض ضباطه
وجنوده على إخلاصهم له فأقطعهم « قرطاجنة » كلها .. وعاشوا هناك
سادة وأشرافا .. بينما تحول أهلها إلى طبقة دنيا من الرقيق ..

كانت فلسطين ، إحدى مستعمرات هذه الامبراطورية ، يقطنها
مليونان ونصف مليون من الناس ، يعيش الوثنيون منهم في مدنها
الساحلية .. ويتركز اليهود في المدن الداخلية .. ويعانى شعبها ، سيما
اليهود ، نزاعا عنصريا ، واضطرابا سياسيا .

فبين أهل يهوذا ، والسامريين ، وبين الصدوقيين ، والفريسيين ،
عداوات دائمة الاستمرار .. ولكن مقتهم لروما يجمع بين قلوبهم المشتتة .
وعلى صفحة هذه البلاد التي سيرفع المسيح فيها صوته بعد قليل ، تنعكس
مساوىء الاستعمار الرومانى وسلوكه ..

فلاستبداد السياسى ، رجيم ، حتى إنه فى معركة واحدة فى إبان شباب
المسيح ، أى قبل جهره بدعوته ، قاد « قارس » حاكم سوريا الرومانى حملة
تأديبة على بعض مدن فلسطين ، فهدم مئآت البلدان ، وصلب ألفين من
سكانها ، وباع ثلاثين ألفا فى أسواق الرقيق .

ومن هنا توجهت آمال كثيرين ، فى مجيئ مسيح مخلص ملك ، يؤسس
مملكة مستقلة ، تدفع ضغط روما وتسلطها ..

والظلم الاقتصادي جائم يومئذ ، وقبلئذ .. فالضرائب فادحة ، وجُبَّاتُها
لحساب الرومان لا يرحمون ، وكهنة اليهود ، وتجارهم لا يقلون عن الآخرين
جشعا وبغيا ..

ومن هنا ، توجهت آمال قوم آخرين في مسيح يلغى التجارة ، والملكية
الفردية ، ويحقق مساواة كاملة بين الناس .. !!

كان أصحاب هذا الأمل ، جماعة تسمى « الأسينية » أو « الأزيون »
كان أعضاؤها يعملون في مزرعة جماعية ، غربى البحر الميت ..
ويجمعون محاصيلها ، وكل مكاسبهم في بيت مال مشترك .. ومحظور على
أى منهم أن يمتلك لنفسه بيتا ، أو فراشا ..

وكانوا يؤمنون بالسلام ، ويطردون من صفوفهم كل من يصنع ،
أو يساهم في صنع شيء من أدوات الحرب .. !

ولقد حدث لهم — كما يحكى الكاهن يوسفوس — في تاريخه ،
وكما ينقل عنه ديورانت في قصة الحضارة — أن عُدُّبوا ، وحُرِّقوا ،
وقطعت أجسامهم . ليتخلوا عن عقيدتهم وسلوكهم ، فأبوا ، وجادوا
بأرواحهم مبتهجين .. !!

هذا رسم بياني ؛ للموقف كله ، في العالم الذى تسود معظمه الأنانية
من جانب ، والمسكنة من جانب آخر .. وفي الأرض التى سيقدر لها أن
تستقبل المسيح القادم .

ترى . ماذا سيصنع به يهودها . الذين طالبا انتظروه .. !؟

فى هذه الدنيا التى لحنها ، شهد « بيت لحم » ذات صباح نضير
مولد طفل

لم يكن أحد الذين شهدوا ميلاده ، بقادر على استجلاء المستقبل العظيم
لهذا الوليد النائم فى مهد متناه فى البساطة ..

ومع هذا ، فلن يغيب طويلا شروق هذا المستقبل ، ولسوف يكبر
الطفل ، ويشب وتهاجر به أمه خوفاً عليه ، ثم يعود فيستمع ليوحنا
المعمدان ، ويلقف منه الشرارة التى ستطلق قواه العارمة من مكانها ،
ويمضى هادراً ، جتاشاً . يحدث الناس فى دعة وحلم ما داموا يصغون إليه
ودعاء مسالمين .

ثم يجلجل فيهم كالنذير — يا أولاد الأفاعي — حين يلمح فى عيونهم
الماكرة نوايا القدر والكيد .

ولسوف تبدأ المسيحية — فى تقديرنا — من ساعة اللقاء العظيم بين
« يوحنا » ، و « المسيح »^(١) .

فمن المكان الذى شهد ذلك اللقاء خرجت القافلة أول ما خرجت إلى
بلاد الناصريين . ثم إلى ما حولها ، ثم إلى روما الجاثية فى ابتهاال ضارع ،
ثم إلى أقطار شتى فى الدنيا ، والتاريخ ..
فإلى هناك لنبصر مشهد الشروق ..

(١) أو لعلها تبدأ بـ « اشعيا » وثورته المسالمة من أجل العدالة ، والفضيلة والسلام

نحن الآن ، على ضفاف الأردن .. وهذا الرجل المتبتل ، الأشعث
الأعبر ، الذى يرتدى ثوباً من الشعر ، ويعيش على عسل النحل ، وعلى
الجراد الجاف ، هو « يوحنا » أو « يحيى » عليه السلام ..

إنه عابد أبواب ، ليس معه من الدنيا شيء .. وإنه ليدعو الناس إلى
التوبة ، ويُعَمِّدُهم بماء النهر كي يساعدهم على تطهير قلوبهم . وإنه أيضاً
لُيَنْدَدُ فى عنف شديد بالتفاق . وبالكهنة الذين « يغسلون أيديهم ، وقلوبهم
ملآنة دماً » ..

ملآنة بالشره وبالحقد وبالأناية .. !!

وهو ، وإن يكن فى عزلته تلك ، بعيداً عن الواقع السيء الذى تموج به
« أورشليم » إلا أنه بهذا الواقع جدٌ خبير ..

ففى « أورشليم » هذه .. تلقى دروسه ، وعاش من عمره بعضه ، بين
الكهان ، والفرّيسيّين ، والتجار ، وجنود روما وعملائها ..

وهو شديد الخوف من الله ، ومن عقابه .. وإنه لا ينسى أن هذه الرقعة
من الأرض ، التى يعيش فوقها ، قد ازدهرت عليها ذات يوم « سدوم »
ثم خسف بها ، وبأهلها ، حتى لم يبق منها إلا عبرتها القاسية الرهيبة .

وهو يستعيد ذكريات القرون التى كانت لها على اليهود وطأة شديدة .
فببصر وراء كل ضربة محققهم بها القدر ؛ تِلَالا من الخطايا ارتكبوها
فأخذت الرجفة صالحهم ، وطالحهم ..

أفيسكت عما يرى من جرائم وسيئات ، أم يصدع بما فى نفسه من
حديث نافع مضى ..

لكن «أورشليم» على بعد عشرة أميال منه .
فهل يتركه طفاتها يتكلم حين يأتيهم نبأه ، أم يسوقونه إلى نفس
المصير الذى طالما ساقوا إليه أنبياء وقديسين ..

إن طبيعة الإنسان ، هى الإنسان نفسه . وطبيعة «يوحنا» بكل
ما تحمل من جيشان ، وسكون .. من إقدام وخشية .. من تطلع
وعزلة .. من نُسك وتبتل ؛ وغيره على الإنسان ..

هذه الطبيعة ، هى يوحنا . وإنه ليؤثر فى الآخرين بنقل طبيعته
إليهم .

هكذا نحن البشر .. تأثيرنا فى الآخرين ، يعنى أننا نفدنا إليهم ، بالجزء
الأقوى من طبيعتنا ..

وقد يكون الذى يتلقى التأثير ، أقوى من المؤثر ذاته .. ومع هذا ،
يظل للتأثير نفعه ، وضرورته .. لأن يكون بمثابة «إشارة البدء
والانطلاق» . ورفع الفطاء عن القوة الحبيسة المنتظرة ..

وشئ يشبه هذا ، سوف يحدث بين يوحنا ، والمسيح .
لم يطل تفكير «يوحنا» فاختر طريقه ، وواجه مسئوليته . ووسط
حشد من الناس وقف يذيع أولى كلماته :

— «توبوا .. لأنه قد اقترب ملكوت

السموات» ... !!

وطار بين البلاد نبأه ، وكثر سعى الوافدة إليه .
و ذات يوم ، والمسيح عاكف على شبابه الطاهر . يحلوه ، ويحسن

تنشئته ورعايته ، التقى بقافلة من قريته ، أصحابها عائدون من شاطئ الأردن
ذاك . .

ويقترّب منهم في شوق ويسألهم :

— هل رأيتموه . . ؟

— نعم . .

— ماذا كان يقول للناس ؟

— سمعناه يقول :

« من له ثوبان فليعط من ليس له ، ومن له طعام

فليفعل هكذا » . . .

وتتفتح روح المسيح ، ويتهلل وجهه . . ويحس كأنها كلماته . . كأنها
مبادئه . . أو كأنه أولى الناس بتقبلها ، وحمايتها ، وتحويلها إلى سلوك
ونهج .

« من له ثوبان ، فليعط من ليس له » . .

ما أكثر ما فيها من عذوبة ، ومن رحمة ، ومن عدل . .

وما أحرّأها بالتضحية في سبيل حمل الناس عليها ، سيما أولئك الشريرين
القابعين في « أورشليم » الخفيين وراء أرديتهم الفضفاضة ، نفوساً تفوق
في اللؤم ، اللؤم نفسه . وتسكاد الجريمة حين تراها تصيح : مرحباً
بوطني . . !

وعاد يسألهم :

— وكيف يستقبل الناس ؟

ويجيبونه :

إنه يفتح قلبه لهم جميعاً ، حتى العشارين لا يردهم ، بل يعمدهم ويمظيهم ،
وحتى الجنود ، لقد سألوهم عما يصنعون ليرضوا الرب ، فأجابهم :

« لا تظلموا أحداً . .

« ولا تشؤوا بأحد » .

وازدادت روح المسيح إشراقاً ووجداً ، وأوى إلى نفسه يفكر ،
ويتأمل . .

إن الرؤى العظيمة الباسلة التي يحسها في أعماقه ، فقد انطلقت صادحة
على ضفاف الأردن ، فلماذا لا يكون هناك في استقبالاتها ؟
وسع أول قافلة ، شد رحاله .

وهناك ، بين الصفوف المصغية إلى كلمات يوحنا ، أخذ مكانه في خشوع
وتقوى . .

كان يوحنا يقول :

« أنا صوتٌ صارخٌ في البرية . .

« قوموا طريق الرب » .

وشق السكون سؤال وجه إليه :

— هل أنت المسيح الذي بشر بمجيئه !

ويجلجل صوته بإجابة سريعة حاسمة :

« لست أنا المسيح .. »

أنا أعمدكم بماء ، ولكن يأتي من هو أقوى مني ،
من لست أهلاً لأن أحل سيور خدائه .

ثم يفتح عينيه جيداً على الوجوه الباسرة ، وعلى اللحى الطويلة المتآمرة
في أصداغ الكهنة الذين جاءوا ليأتمروا به ، وإذا يبصر فوقها تحركات
أحقاد تتحفز وسخافات تتنادى ، يبدها بصيحة زاجرة :

— يا أولاد الأفاعى ! !

وينهر المسيح بهذه القوة المتحدية .

وحين ينزل يوحنا إلى الماء ليعمد الطالبين ، يتقدم المسيح إليه راجياً
تعميده ، ويلفه يوحنا بنظرة غريبة ، ثم يهمس في سمعه :
« أنا محتاج أن أتعمد منك ، وأنت تأتي إليّ » . ؟ ؟

ويختلج رأس المسيح متسائلاً ، وتلتع أمامه مرة أخرى وسط هالة من
الضوء الدال الكاشف ، كلمات « يوحنا » التي صدح بها منذ قريب :
« يأتي من هو أقوى مني » .

ولكن الحوادث تترى في مفاجآت عجيبة ، وفي بلبله موجعة ..
فجنود « هيرودس » في خوذهم المستكبرة ، وفي « بطونهم » المنتفخة
بالحرام ؛ يدهمون المكان الآمن الوديع ، ويعتقلون « يوحنا » ثم
يذهبون به ..

ويعود المسيح إلى « الفاصرة » بروح غير الذى غادرها به . . . يعود
وداخل إهابه إنسان آخر ، لا تشغله خرفته التى يكسب منها عيشه ،
ف « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، وإنما يشغله ذلك الدور الجديد الذى
يحس أنه قد دعى لأدائه . . .

ونفس الصوت الذى سيسمعه « محمد » بعد ستائة عام يرن فى روعه
رنين الصدق هاتفا :

« يا أيها المدثر ، قم فأنذر » . . .

نفس الصوت ، يرن الآن فى روع المسيح :

« أنت ابنى الحبيب الذى به سررت . .

للرب إهلك تسجد ، وإياه وحده تعبد » . .

ليس هناك ذرة من ريب فى صدق الحس الذى تلقى به محمد كلمات ربه .

ولا ذرة من ريب فى صدق الحس الذى تلقى به المسيح نداء ربه

فليس فى حياتيهما أثر — أى أثر — لتصنع أو ادعاء .

حتى كلمة « ابنى » فى عبارة المسيح لم تزغ عن مكانها ، فنحن جميعا أبناء

الله ، بمعنى أننا خلقه . . . وأبوتنا لنا ، لا تعنى تلك الأبوة الوالدة التى

تعرفها « دفاتر المواليد » ، بل هى أبوة الخالق الأول ، والأعظم .

وعما قريب سنلتقى بالرسول وهو يستعمل نفس التعبير ، فيقول :

« انخلق عيال الله . .

وأحب الناس إلى الله أنفهم لعياله » .

بل سنسمعه يقول :

« يقول الله عز وجل : لا تسبوا الدهر ، فأنا الدهر » .

فهل الله حقاً هو الدهر ، بالمفهوم الحرفي لكلمة دهر . . ؟ !
لا . . وإنما هو سبحانه ، الدهر . . بمعنى أنه القوة الكبرى المسيطرة
والمبثوثة مشيئتها في الزمان والمكان . . والتي ينبثق من خلال رحمتها ،
وقدرتها ، أسباب الحياة وطاقاتها .

وكذلك وصف الله بالأبوة ، فهو القلب الكبير الذي يسعنا جميعاً
بحنانه وببره .

أجل ؛ جميعاً . . صالحنا ، وفاسدنا ، قوينا ، وضعيفنا .
وفيا وراء هذا ، نلتقى بالمسيح ، ينعت نفسه كثيراً بأنه « ابن
الإنسان » .

بيد أن « ابن الإنسان » هذا ، لم يعرف فؤاده الذكي أية تخوم فاصلة
بين الأب ، والرب . .

لقد تخطى حدود النسب الأرضي ، وجاوزها جميعاً .

حتى أمه ، حين يقال له ذات يوم : إنها بالباب تريدك ، يجيب : من
هي أمي ، ومن هم إخوتي . . ؟ ؟

« إخوتي وأمي هم من يعملون مشيئة الرب » !!

هذا هو ابن الإنسان ، الذي نعت الله بأنه أبوه . .

والذي قال : « كل غرس لم يفرسه أبي السماوي يُقلم » .

إنه الآن أمام الله ، وجهاً لوجه — إن جاز هذا التعبير — وجميع
الأحساب ، والأنساب ، والأسباب ، تزاور وتختفي ، وتذهب بعيداً ،
بعيداً . . . بعيداً . . .

لأن القبس الإلهي ، المعطى لكل إنسان ، قد نما في المسيح ، وت فوق
وانقشر ، حتى ملأ وجوده كله ، ولم يعد يبصر في ضيائه الباهر سواه . .
حتى أمه التي ولدته ، وحتى إخوته .

ارتفعت روابطه بهم إلى مستويات عالية من الواجبات العامة الكبيرة
التي تجعل من جميع البشر إخوة له ، ومن جميع الأمهات أمًا . . ومن وراء
هذا كله ، أبوه السماوي . . ربه الذي أرسله ، كما قال هو لي جبر من كسرى
القلوب ، ويطلق الأسارى من القيود !!

لقد أسهبننا قليلاً في هذه المسألة ، ولم يكن بد ، وقد جاءت مناسبتها
من أن نسهب ونفيض . .
والآن نعود إلى حديثنا الأول . .
إلى يوحنا . .

لقد اعتقلته جنود روما ، جنود « هيرودوس » إلى حيث لا يستطيع
بعد اليوم أن يلتقي بالناس ، ويهدم في أنفسهم أوثان الطاعة لروما ،
وقيصرها ، ولكهنة أورشليم .

أجل . . إلى السجن ، حيث لا يلتقي بعد بالقلوب الظامئة إلى كلمة الله
ولا بالنفوس الساخطة على الظلم والكذب .

وخلت ساحة بصر من بطلها المقتحم .. فهل سيطول بها العهد حتى
حش .. ؟؟

كلا ، لقد قال يوحنا قبل أن يمضي : « يجيء من هو أقوى مني » .
فمن كان يجد في نفسه اليقين بأنه هو ، فليتقدم ..

وكان هناك واحد يملأ اليقين رُوعه ووعيه ..

وكان هو المسيح ..

أوقدت الساعة ..

أجل ، يا ابن الإنسان فتقدم ..

وفوق مكان عال ، في بيت لحم ، وقف يبلغ الحافين حوله أولى كلمات

الحق :

« قد كمل الزمان ..

« واقترب ملكوت الله ..

فتوبوا ..

« وآمنوا بالبشرى » ..

ولندعه يتم حديثه العذب القويم ، ريثما نمضي في رحلة سريعة
إلى مكة لنشهد مجيء أخ له كريم ، ونلتقي بأولى سمات الزمالة بين
محمد والمسيح ..

علّام يدلّ هذا الرجل الصالح ، الزاهد ، الأواب ، الهائم بين

الصحارى والجبال ، الضارع إلى الله فى نجوى دائبة .

أَنْفَى لَكَ اللَّهُمَّ عَانٍ رَاغِمٍ

مَهْمَا تَجَشَّنَى فَأَنَّى جَائِشِمَ

إنه « زيد بن عمرو بن نفيل » يغمره الإحساس بنبوة آتية ، ويود لو يكون صاحبها ، يختاره الله لها . فيحظى بكل ما فى هذا الاختيار من شرف ، ويؤدى كل ما يقتضيه من حق .

وإنه ليجوب الأرض وحيداً ، ملجأً فى دوائه ، ممعناً فى رجائه ، مبتهلاً إلى ربه سبحانه ، أن يعطيه إحدى الحسنين :
يكون هو النبي المختار ..

أو يجمعه الله به إذا كان الاختيار من حظ سواه ..
كان « زيد » هذا ، كما نعتة المؤرخون ، راجح العقل ، قوى الخلق ، ذكى الفؤاد ، ثاقب البصيرة .

وهو فى إحساسه العميق بمقدم نبى ، لم يكن منجماً ، ولا عرافاً ، بل كان رجلاً مفتوح العينين على واقع البيئة ، وروح العصر ، فأدرك وجود حاجة تاريخية ملحة ، تنادى مصلحاً .. منقذاً .. رسولا ..

وبلغ إحساسه بحتمية هذا الجيء ، حداً عين له ميقات ظهوره ..
اليوم .. أو غداً .. وإن يتأخر إلى بعد غد على الإطلاق . 111

إن هذا الحس الصادق لابن نفيل ، يشكل ويمثل ضرورة تاريخية كانت تبشر فعلاً بمجيء محمد ..

وهكذا ، وبعد ميلاد المسيح بقرابة « خمسمائة وسبعين عاماً » جاء

فى رحلة عظيمة إلى الحياة ، واحد من أعظم أبنائها شأنا ، وأكثريهم براً ،
وأهداهم سبيلا ..

وكما لمحبا البيئة الخاصة والعامة ، التي كانت حين جاء المسيح .. نريد
أيضا أن نلمح البيئة الخاصة والعامة ، التي كانت ، حين جاء محمد ، عليهما
صلوات الله ، وبركاته ، وسلامه .

* كان العرب مبشورين فى جزيرة مترامية . يزخر شمالها ، مثلما
يزخر جنوبها بالقضاء الواسع ، وبالصحراء العارية . وتقوم القبائل
بالبحث الدائب عن لقمتها ، وعلى حراسة عاداتها ، وعباداتها .. وتسير
بهم الحياة بطيئة ، كخطى الأغنام فى مشيها اليائس وراء عشب
تأكله وترعاه .. !

* ولكن هناك قرى كبيرة تتجمع فيها مراكز الحياة القبلية ..
مثل مكة ، والمدينة ، والطائف ، فى شمال الجزيرة .
وفى وسط مكة ، التي سينعتها القرآن حين ينزل ، بأمر القرى يقوم بناء
متواضع ، لكنه هائل التأثير ، مقدس المكانة .
إنها الكعبة ..

* وفى الكعبة مزدحم من الأصنام الطارئة ، فما كانت كذلك
فى أيامها الأولى ..

أما اليوم ، فلكل قبيلة ، أو مجموعة من القبائل صنمها المعبود .
يفغدو الناس ، ويروحون . ثم ينتهى تطوافهم دوماً إلى هذه الأصنام

يشوئها حاجاتهم ، ومخاوفهم ، وآمالهم ..

* فى جنوب الجزيرة ، أو شبه الجزيرة ، يحكم الفرس الذين ناصروا ملوك حمير على الأحباش ، ويتخذون من اليمن قاعدة لحكم سافر تارة ومقنّع أخرى .. ولسوف يظل هناك حتى يبطش أتباع الرسول المقبل ، بامبراطورية الفرس كلها .

* وفى الشمال ، حيث الحجاز ، يسيطر أشراف القبائل ، ورؤساء العائلات والعشائر ، يصلهم الساحل الغربى بمرفئ البحر الأحمر وتجارته . وينداح الطريق أمام قوافلهم وتجارته حتى بلاد الشام ..
* وهذا الشعب الصبور ، شديد التعلق بحريته ، فذ الولاء لها ، لا يرضخ لأى حكم خارجى . ويؤثر شظف الصحراء ، ولأواءها ، لأن صعيدها المترامى ، وآفاقها البعيدة ، وحياتها المنطلقة .. كل هذا ، يغذى فى نفسه الطامحة ، حنينها الأبدى إلى مزيد من الحرية والانطلاق .

ولكنه ، على الرغم من هذا — وإنه لعجيب — يخضع للأصنام خضوعاً مذلاً . فأمام الحجر الصامت العاجز ، ينيخ كبرياءه واعتداده ، ويسلم أمره ومصيره .. ويبتهل ، ويناجى ، ويرجو ، ويخاف .. !!!

* ثم إنه على الرغم من بداوته ، يمارس حياة أدبية رفيعة . فالشعراء يملأون فجاجه .. وللشعر ، كما للنثر أعياد ومواسم تشد إليها الرجال . وليس هذا فحسب .. فالإنتاج الأدبى المتفوق يُجاز ويكافأ ، بأن يرفع إلى أقدس مكان ، فيعلق بأستار الكعبة ،

حتى ولو كان هذا الانتاج يصور مغامرة حب ، أو ليلة حمراء .. !
وعن طريق القصة المنظومة ، كان يؤرخ لنفسه ، ويعبر عن تجاربه
تعبيراً فنياً عجيباً . !

* وفي طرقات مكة ، كنت تسمع صهيل السادة وثغاء العبيد « ! »
وتلتقي بالطائفين حول البيت العتيق ، وبالخمورين الذين أضفاهم طول
السهر في غرف العاهرات .. وقبلما تبصر شعائر إيمان صحيح عاقل ..
فإذا غادرنا مكة إلى العالم ، وجدنا شيئاً قريباً مما كان ، قبيل ظهور
المسيح ...

* في الشرق الأقصى ، تفيق اليابان على صوت المدينة القادمة إليها
من الصين ، وكوريا ، والبوذية ..
* وفي الهند ، تمزقات داخلية ، وحروب أو فتن أهلية
متساوقة ..

* والصين ، مشغولة باسترداد الأقاليم المجاورة التي خرجت عليها
بعد سقوط أسرة هان ، ثم لا تلبث أن تستقبل عصراً من السلام ،
والرخاء جدّ عجيب . !

ومراكبها المترعة بخيراتها ، تمتطى تَبَج البحر ، قاصدة الثغور
البعيدة على شواطئ المحيط الهندي ، والخليج الفارسي ..
والثقافة ، والأدب ، والفن في أزهى عصورها ..
ولعلنا — الآن — ندرك سرّ وصية الرسول التي سيقولها فيما بعد
« اطلبوا العلم ، ولو في الصين » . !

هذا هناك ..

أما هنا ، فكانت الامبراطورية الرومانية الشرقية ، والامبراطورية
الفارسية . تخوضان من أجل المستعمرات في الشرق الأدنى ، وفي أوروبا ،
حروبا مُغنية . !

فجستنيان يخرق الهدنة ، ويهاجم شمالى أفريقية ، وإيطاليا .. ويرد
أنوشروان التحية بمثلها ، فيجتاح بلاد الشام ؛ وتسقط في حجره كل
ثروات ، وخيرات « أنطاكية » . !

ثم يعقدان الصلح .. ثم يعودان للحرب .. ولسوف يظل بأسهما
بينهما شديداً ، حتى يزحف عليهما بعد وقت قريب ، أتباع رسول كريم
فيذيعون نعي الإمبراطوريتين الآفلتين ..

أما اليوم ، فإنهما في حروبهما الخبولة من أجل السيطرة والسلب .
تبسطان سلطانهما على الشام ، والعراق ، وسوريا ، ومصر .. وتسومان
الناس خسفاً وضنكا .

وحين نعود إلى حيث كنا ، إلى الصحراء العارية .. إلى الكهوف
والبادية .. إلى دنيا الأصنام ، والأزلام ، واليسر .. سنسمع صوتاً
جديداً ، يلقي حديثاً هجياً .. سنبصر إنساناً جديداً يذرع الوجود في
رفق وأناة ..

إنه هو الذى كان « زيد بن عمرو بن نفيل » يلح في البحث عنه ..
والذى كان الزمان والمكان يتطلبانه ، وينتظران قدومه .

إنه ، محمد ..

« أجود الناس كفا .. وأجرأهم صدراً .. وأصدقهم لهجة ..
وأوفاهم ذمة .. وألينهم عريكة .. وأكرمهم عشرة » . إنه قائم بين
نفر من الذين يصغون إليه هناك .. في ذلك المكان البعيد عن أعين
الرقباء ، يحدثهم عن الله .

« الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف » ..؟؟

الجوع ، والخوف ..؟؟

يا لها من بداية جريئة ، وسعيدة ! !

ويتخلق حوله حراس القديم ، وعُباد الأصنام ، فيهمس إليهم :

« يا أيها الكافرون

« لا أعبد ما تعبدون

« ولا أتم عابدون ما أعبد

« ولا أنا عابد ما عبدتم

« ولا أتم عابدون ما أعبد

« لكم دينكم .. ولى دين » .. 11؟؟

وهذا أيضًا ، كم هورائع ..

إنه « تعايش سلمى » يدعو إليه محمد ، أولئك الذين برزوا مبكرين

لعداوته وحربه .

ولكن ، لقد تركنا في قفرتنا السريعة هذه ، مشهد الشروق .

فإلى وراء قليلا ، لنرى الأمل ، وهو يولد .. والرشد ، وهو ينمو ..
والرسول ، وهو يتسلم وثيقة الاصطفاء ، وأمر التبليغ ..

نحن الآن في شعب من شعاب مكة .. ومكة المتوقدة عاكفة
على حياتها ..

ويولد طفل يتيم ، تتلقاه ذراعا أم حانية ، لا تلبث هي الأخرى أن
تغادر دنياها ، تاركة وليدها في السادسة من عمره غصاً ، وحيداً ..
ويشب الطفل ، شابا سريعا نقيا .. وتقع عيناه على أصنام قومه .
وعلى الناس الحاقين بها ، الجائين أمامها ، فيأخذه تفكير ذاهل شديد .
أتكون هذه الحجارة المركومة آلهة حقا .. ؟

ويستأنى طويلا ، قبل أن يقبل عليها ، أو يعرض عنها ، ويأوى إلى
نفسه مفكراً ، ثم يفتبذ منها مكانا قصيا ، بعيداً عن اللجاجة ، والمؤثرات
هناك في غار حراء ، حيث يستجمع قوى إلهامه ، ويصقل كل استعداداته
الروحية ، والعقلية ، ويهيئ بكل القوى أن تنحف لنجدته ، وهدايته ،
إن كان ثمة لهذا سبيل .

ثم يعود إلى البيئة .. إلى الأصنام ، والضوضاء ، والتقاليد ،
والأساطير ، وكل ما يشكل حياة الناس ، ويطويهم في موجات زحامه
ويستعرض ذلك جميعه ببصيرة مجلوة ، قد أرهاقها طول التعبد .

وصفاء الوحدة . وإلهام العزلة المفكرة .. وتقترب حقائق الأشياء من بصيرته ، فيراها أكثر مما يراها سواه .

ويعود إلى « الفار » في ميقاته المعلوم ، وينثر بين يدي وعيه ، تجاربه الجديدة . وكلما بزغت له خاطرة ، لم يتوار منها ، ولم يهرب من مسئولية تمحيصها ، والتفكر فيها .

فثقته بنفسه جد عظيمة .. وحياته ، وسلوكه ، وعلاقاته الصادقة بالحياة ، تشد زناد الثقة فيه إلى أقصاه ..

ليس في قريش من لا يدعوه « الأمين » ..

وليس فيها من لا يشهد له برجاحة العقل ، وعظمة النهج ، واستقامة الضمير ..

وهو ينال هذه الثقة بطبيعة مبينة مفتوحة . لا التواء فيها ، ولا مخاتلة . إنه « نسيج وحده » في غير تصنع ..

* الناس يعكفون على أصنام لهم .

أما هو ، فشئ في روعه ، يقول له : قف .

* الناس ، يلعبون الميسر ، ويستقسمون بالأزلام ، ويظهرون

الأرملة ، ويأكلون مال اليتيم ..

أما هو ، فشئ في روعه ، يقول له : ارجع .

* الناس يعيشون بالوراثة والمحاكاة ، شعارهم « إنا وجدنا آباءنا

كذلك يفعلون » .

أما هو ، فشئ في روعه ، يقول له : فكَر .
إذن ، فهو إنسان يحيا داخل حالة عظيمة مضيئة من انبعاثات
ممتازة متفوقة .

ولقد عانى واجبات وجوده على أمثل طريقة ، ومارسها منذ البدء ،
في مستوى عال ، لا يطيقه سوى أولى العزم من الرجال .
ومع الأيام ، تنضج شخصيته ، وتفتح رؤاه .

وينمو وعيه الداخلى نمواً تضيق به ذاته ، وتحتشد قوى نفسه ،
والهامه ، وتفكيره وعزيمته ، احتشاداً ، يتعاضد كل تلثب ، وكل
أناة ، وكل انتظار .

ويهل عليه ، ما كان يرجو وينتظر .. أذان من الله بالبدء .
ويقين بأنه صاحب الدور ، ورائد المرحلة ..
وذات يوم ..

ولنصغ إليه ، يصف ما حدث :

» .. جاءنى الملك فقال : اقرأ .. قلت : ما أنا
بقارىء . فأخذنى ؛ ففطنى حتى بلغ منى الجهد .
ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ .. فقلت : ما أنا بقارىء .
فأخذنى ففطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى
فقال : اقرأ .. فقلت : ما أنا بقارىء ! فأخذنى
ففطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى ،

فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان
من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم .
علم الإنسان ما لم يعلم » .

وهكذا ، يلتقى « الرسول » بدوره . ويحمل الأمانة الكبرى . ويمضى
في حذر أول الأمر .. ثم يجهر بها ويصدع حين يقول له ربه الذى
اختاره واصطفاه « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين » .
ولسوف يواجه من الأذى ، ومن الكيد ، ومن العناد ما يزيد
إصراراً وعزماً .
ولسوف ينتصر في معركة الإغراء ، انتصاراً نبيلاً ، تاركا كلماته
المهادية العظيمة ، درساً لا يرتجف ضياؤه .

« والله يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر
في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يقضيه الله
أو أهلك دونه » ..
سيدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ..

فإذا أحاطت به العداوات الباغية في مكة ، هاجر بدعوته إلى المدينة .
وإذا اضطره أعداء الحياة الجديدة ، الطاهرة ، العادلة التي يبشر بها
إلى القتال ، قاتلهم غير معتد ، ولا مسرف ..
فإذا أظفره الله بهم أخيراً ، سارع إليهم بالنجدة والأمن :
« مذهبوا فأنتم الطلقاء » ..

وعلى طريق حياته الباهرة ، سترتسم ، إلى الأبد آثار قدى
رجل .. وإنسان .. ورسول ..

وبعد .. فماذا كان محمد والمسيح يريدان .. ؟
ما الغرض العظيم الذى سارا على طريق الرب ، ليبلغاه وليحققاه ..
لقد بَشَّرَا كثيراً بثوبة الله .. وخَوْفاً كثيراً من عقابه .. وأذَّنَا
فى الناس بشعائر ، ومناسك ، وعبادات ..

فهل كان هذا وحسب ، غاية سعيهما .. أم كان أسلوباً ووسيلة
لحمل الناس على إدراك شأو بعيد ، وأمر جليل .
لقد قال المسيح : « جئت لأخلص العالم » ..
وقال محمد : « إنما أنا رحمة مهداة » ..

فماذا كان يعنيان .. ؟
من أى شقاء ، سيخلصنا المسيح .. ؟
ومن أى عناء ، سيرحمنا محمد .. ؟
وفى التحليل النهائى لنهجهما ولمواقفهما الزاخرة المثابرة .. ماذا سنجد ،
هناك من لباب خالص محض .. ؟؟

وبعبارة واحدة :

ماذا كانت وجهتهما ..

أما أنا فأقول :

كانت ، لإنهاض الإنسان .. وإزهار الحياة ..

الفصل الرابع

معاً
من أحبل الإنسان

الإنسان ..

هذا الاسم ، ذو الرنين الصادق ، الفاتن ، المثير ..
هذا السكّان ، الذى أوْتُمِنَ على كل أمانات الحياة وواجباتها ..
هذا المسافر ، الذى لا يضع عصاه عن كاهله لحظة ، والذى يُوَلَّى
وجهه دَوِّماً شطر كمال بعيد .. !

هذا الإنسان ، فى علمه وجهله .. فى ثرائه وفقره .. فى حريته
وأغلاله .. فى تقواه وفجوره .. فى صحته وسُقمه .. فى ألمه وأمله ..
فى عظّمته وبُؤسه ..

كيف تراءى لمحمد ، وللمسيح ؟
ما نوع الواجبات التى حمّلاها تجأه ؟
ما الأغلال التى حطّماها عنه ؟
ما الانتصارات التى حقّقاها له ؟

من هذا المدّخل سنمضى ، سائرين وراء ضياء باهر ، يقودنا نحو
ما يُهمّنا اليوم معرفته من رسالة عيسى ، ورسالة محمد ..

واسوف يكون من حسن حظ الإنسان — فى محنته القائمة — أن
يبصر عناية الله به إلى كل هذا المدّى الذى لم يكن يتحدّسه ،
ويخّاله ، كما سيكون من سوء حظ أعداء الإنسان ، أن يظهر

للناس حقيقة موقف الرسل الكريمن ، من الإنسان ، ومن حقوقه في هذه الحياة .

قرأتم أن المسيح رفض مُلك اليهود ، كما رفض الإذعان لإرهاب رؤسائهم ، وطلب إليهم أن يخلوا بينه وبين كلمة الله ، يريد أن يقولها .

وقرأتم أن محمداً رفض أن يعطى الشمس في يمينه ، والقمر في يساره ، على أن يترك الأمر الذي من أجله جاء ..
فما الكلمة التي قالها المسيح ، وحرص أعظم الحرص على أن يقولها ؟ ..

وما الأمر الذي آثر محمد تبليغه ، على مُلك يحده الشمس ، والقمر ؟
إنهما لم يجيئا بدعوة مجردة ، بل بدعوة ذات موضوع حافل عظيم .
فاذا كان ذلك الموضوع .. ؟
لقد كان الإنسان ، وكان الحياة ..

وأول ما يبهرننا في عنايتهما بالإنسان ، ذلك التردد المُعِين لاسمه ،
والخفاوة الصادقة به .

فالمسيح ينعت نفسه بأنه « ابن الإنسان » ويكررها كثيراً .

« إن — ابن الإنسان — لم يأت ليهلك أنفس
الناس ، بل ليخلص » ..

« ها نحن صاعدون إلى أورشليم ، و — ابن
الإنسان — يسلم إلى رؤساء الكهنة ..
« لا يذوقون الموت حتى يروا — ابن الإنسان —
آتيا » ..
« ومن قال كلمة على — ابن الإنسان — يُغفر له » ..
« لا تعرفون اليوم ولا الساعة التي يأتي فيها — ابن
الإنسان — » ..
« إن — ابن الإنسان — ماض ، كما هو مكتوب
عنه » ..
« كذلك يكون — ابن الإنسان — أيضا لهذا
الجيل » ..

* * *

ويتحدث القرآن الكريم المنزل على محمد عليه الصلاة والسلام .
يتحدث عن الإنسان ، فيعطيه صفته الحقة ، كمِخْوَرٍ لنشاط
النبي ، وموضوع لرسالته :
« لقد خلقنا — الإنسان — في أحسن تقويم » ..
« أولاً يذكر — الإنسان — أننا خلقناه من قبل
ولم يكن شيئاً » ..

« إن — الإنسان — خُلِقَ هُلُوعًا ..
« إن — الإنسان — لِيُطْفَى ، أن رآه استغنى ..
« وإذا أنعمنا على — الإنسان — أعرض ونأى
بجانبه .. »

« فإذا مَسَّ — الإنسان — ضُرُّ دَعَانَا ..
« وكان — الإنسان — أكثر شيء جدلاً ..
« وَيَدْعُ — الإنسان — بالشر دعاءه بالخير ..
« إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض ،
والجبال ، فأبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا ، وأشفقن منها ،
وحملها — الإنسان — .. »

ألستم تجدون لتكرار كلمة « إنسان » سبباً وثيقاً من الحنان والبر ،
ومن العناية ، والاهتمام ، يصله بالله ، وبمحمد رسوله ؟

إن الإنسان ، هو موضوع الرسالة إذن ، رسالة محمد ، ورسالة المسيح ..
ونحسب هذا من البداهة بحيث لا يحتاج إلى تقرير ..

وإلا ، فقيم كان مجيء الراندين الشاهقين والرسولين الكبارين . ؟
* ولأنهما بُعثا من أجل الإنسان .. كانا إنسانين .. كانا رجلين

من البشر .. اثنين من عباد الله ومن أولاد آدم .. يأكلان الطعام ،
ويمشيان في الأسواق .

ولم يجيئنا ملكين .. لم يجيئنا من عالم غير عالمنا ، ولا من طبيعة
غير طبيعتنا ، بل لم يُخْلَقُوا في خَلْقٍ يفاير خلقنا .

« ولو شئنا لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » .

هكذا يقول الله سبحانه ، وهو لم يُنَزَّل ملكا ، لأن الإنسان الصامد
أمام تجربة الحياة .. الإنسان الذى حمل أمانة الوجود بعد أن أشفق من
حملها ، وتفتحى عنها خلائق كثيرة كانت تسير معه فى سباق التطور العظيم .
الإنسان هذا ، خَلِيقٌ بأن يتلقى من نفسه ، الدرس والمثل ..
وإذن ، فلتأته رُسُلُه منه ..

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيزٌ عليه

ما عَنَتُمُ حريصٌ عليكم » ..

* ومن هنا ، يبدأ توقير محمد والمسيح للإنسان .

يبدأ من إمعانهما الكبير فى توكيد بشريتهما ، وإعلان إنسانيتهما ،
ووضع وجودهما داخل هذا الإطار دوماً ..

ولقد كانا ، وهما يرفضان الشطط فى إطرأتهما .. والغلو فى توقيرهما

إنما يقرران القيمة الحققة للإنسان ..

كأنهما يقولان لمن يحاول سلخهما من بشريتهما :

أى مقام هناك أسمى ، وأعظم ، تريد أن تذهب بنا إليه .. 114

وماذا فوق الإنسان من خَلْقٍ .. ؟

الملائكة مثلاً .. ؟

، إنهم في خدمة الإنسان الصالح الكادح ..

أ وحين أراد الله أن يصطفى لنفسه خلفاء في الأرض ، تعالت ترنيمات الملائكة ، ضارعة ، مبتهلة أن يكونوا أصحاب الحظ في هذا الاصطفاء ..

لكن الله رفق « الإنسان » بعين حانية ، وأشار نحوه في حب غامر وقال : هذا هو الخليفة .. !

إذن ، فالإنسانية ، هي الجنسية المشرفة التي يحملها المسيح ، ويحملها أخوه ، وهما بها جدّ نفورين .

عيسى يقول : أنا ابن الإنسان .

ومحمد يقول : أنا بشر مثلكم .

ويؤكدان هذا المعنى أكثر ، وأكثر ، حين ينهى المسيح من أطرى صلاحه فيقول له :

« من قال إني صالح ؟ ! ليس من أحد صالح سوى

واحد ، هو الله » ..

ويطلب إلى تلامذته ألا ينعتوه بالمسيح .. !

وينهى الرسول أصحابه حين يقولون له أنت سيّدنا ، ويقول لهم :

« لستُ سيّداً لأحد ، إنما أنا عبد الله ورسوله » .

كان حرصهما على أن يظلا في وعى الناس مجرد بشر ، اعتداداً

بدور الإنسان ، واعتزازاً بالبشرية نفسها ، ورغبة أمانة في الحياة داخل إطارها ، وطبيعتها ..

حتى معجزاتهما ..

لم تكن تعنى — كما يحاول لنا أن نفهم — أنهما غادرا صفوف البشر ..

فكل عمل عادى .. يتم بأسلوب غير عادى ، يشكل معجزة ..

وإن ذلك ل يبدو واضحاً في أعظم معجزات محمد وصاحبه ..

فأعظم معجزات محمد ، هي محمد نفسه ..

وأعظم معجزات المسيح ، هي المسيح ذاته ..

فإذا هناك .. ؟؟

إنهما ، بشرٌ مثلنا ، يعيشون على ذات الأرض ، ويشربون

من نفس الماء ، ويأكلون من نفس الطعام ..

ولكن الأسلوب الذى اتبعاه في نسج حياتيهما العظيمتين ، لم يكن

أسلوباً عادياً ..

بل كان متفوقاً ، وخارقاً .. فكانت المعجزة .

والقرآن — مثلاً — كلام ملفوظ .. ومسطور ، والكلام شئ

عادى ، لأن البشر جميعاً يتكلمون .

ولكن ، لأن هذا الكلام القرآنى جاء بأسلوب غير عادى ،

فقد صار معجزة ، ومعنى أنه جاء بأسلوب غير عادى .. أن

الإنسان الذى جاء به أُمى ، لا يقرأ ولا يكتب .. وأنه بذل

فى إعداد نفسه ورؤحه كى يستطيع تلقّيه عن ربه ، جهوداً ، أ كثر من مضنية ، وأ كثر من خارقة .

والمسيح ، حين يشفى المرضى اليائسين ، وحين يرد إلى الحياة من اقترّبوا من غيبوبة الموت ، إنما يمارس عملاً عادياً من أعمال البشر ، وهو التطبيب ، والعلاج .

ولكن ، لأن شفاهه للمرضى يتم بأسلوب غير عادى ، وهو لمسة كف أو نظرة عين .. فهنا يكون العمل معجزاً .

أجل .. لقد كانت القوة الخارقة التى يرد بها المسيح العافية إلى المزمّنين ، والتى يدرأ بها الموت عن الحياة المتعلقة بآخر خيوطها .. كانت قوة نابغة من ذاته .

ولكن ذاته ، لم تكن مثل ذواتنا .. بل كانت مؤهلة لعظام الأمور ، معبّأة بطاقات فريدة ، وهائلة .

وفى حياة المسيح نبأ يصور هذا المعنى ، ويحسمه .. يرويه إنجيل « لوقا » ..

ف ذات يوم ، كان يعبر الطريق ، ومعه نفر من تلامذته ، واقتربت منه فى زحمة الحافين حوله ، سيدة كانت تعاني نزيفاً مزمناً .. وفى إيمان عميق واثق لمست هذب ثوبه .

وتوقف المسيح عن المسير فجأة ، وقال :

— « من الذى لمسنى ؟ » .

ويجيب تلميذه ، بطرس :

— « يا معلم ، إنها الجموع تضيق عليك ،
وتزحمك » ..

ويعود السيد المسيح ، فيؤكد أن أحداً لمسه ، لأن قوة خرجت منه :
— « لقد أحسست بقوة تخرج مني » ١١٠٠

قوة تخرج منه ١١٠٠ ؟

أى تفسير عجيب للمعجزة ١١٠٠

لكأنه آت من عقل رياضي ، وليس من قلب مسيح ..
إن الإنجيل يتم هذا النبأ ، فيخبرنا أن العلة زائلت المرأة المريضة
في نفس الوقت .

وهكذا ، يساعدنا المسيح على فهم المعجزة ، وإدراك ما حدث
حين يقول : إن قوة خرجت مني ..

فالذى حدث ساعتئذ ، أن رغبة إنسانية ، مؤمنة ، مستسلمة ، تعلق
بطاقة بشرية غامرة ، طالبة منها العون على الشفاء والخلاص ..

جهاز استقبال سوى ، التحم بجهاز إرسال قوى ، فتلقى عنه
في نفس اللحظة والوقت ..

أجل ، فلم تكن لمسةً عابرةً مسترخيةً مستريية ، تلك التي نبّهت
المسيح إلى جزء من طاقته يغادرها وينفصل عنها .. بل كانت لمسة
هاتفة ، داعية ، ضارعة ، مبتهلة ..

كانت إيماناً مفعماً ، يتحسّس طريقه في ثقة واستنهاض ، إلى ملاذ
هو وحده ، وفي تلك اللحظة بالذات ، الأمل الأوحده ، والرجاء الأعزّ .
ولقد أراد المسيح أن يؤكد لتلاميذه الذين بهرهم شفاء المريضة ،
أن ليس في الأمر شيء غير طبيعي ، فأشار للمرأة قائلاً :

— « إيمانك قد شفاك .. »

« اذهبي بسلام » .. ! !

هذه المعجزات .. لم تكن — كما قلنا قبلاً — خروجاً بالرسولين
الكريمين عن صفّ البشرية .

كما لم تكن تفريراً بالبسطاء ، وكسباً لإيمانهم .. فالذي لا يهديه
إلى الإيمان نور الشخصية ، وجلال العمل ، ان يهديه شيء آخر ..

* ثم إن محمداً ، والمسيح ، لم يهتمّا بشيء مثل اهتمامهما بأن
يُحرّرا البسطاء من غفلتهم وسذاجتهم ، ويحرّرا الذكاء الإنساني مما يؤبّقه
من رواسب الرؤى المغلوطة ، والأساطير الموروثة .

لقد خسفت الشمس ، يوم مات « إبراهيم » ابن رسول الله .

وقال أصحابه : « إن الشمس خسفت لموت إبراهيم » ..

أفلم تكن هذه فرصة طيبة للرسول ، لو كان منتحل أبعاد .. ؟ ؟

بلى .. وليس عليه إلا أن يصمت ، ويدع العبارة التي قالها أصحابه

تنتشر .. ولكنه لا يفعل .. ولا ينبغي له أن يفعل .. فينادي

في أصحابه قائلاً :

— « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ..

لا ينخسفان لموت أحد .. ولا لحياته » .. !!

ومثل هذا الموقف العظيم .. موقف للمسيح .

حين جاءه « يارس » رئيس المجمع يُؤلول ، وينكفيء فوق قدميه يقبلهما أمام الكافة ، ويتوسل إليه ، كي يذهب إلى ابنته التي ماتت ليرد إليها الحياة .

ويدخل المسيح على البنت ، وأهلها حولها ينوحون ، ويضعون وَيُلْقَى على الجسد المسجى نظرة طاهرة قادرة ، فيتحرك الجسد تحت غطائه ..

وتتحول الضجة الباكية الحزينة إلى دهشة ، وفرح ، وصياح ..

« إن المسيح أحيّاها » .. !!

ولكن الصادق العظيم ، يشير إليهم بكفه المضيئة ، حتى إذا صمتوا قال لهم :

« إنها لم تمت .. لقد كانت نائمة » .. !

تأملوا هذين الموقفين جيداً ، موقف محمد من خسوف الشمس .. وموقف المسيح من ابنة « يارس » .

ثم اعلموا أنكم أمام أروع مثل لتكريم الإنسان ، واحترام عقله ، ولتحريره من غوغائيته وسذاجته ..

والرجل العادى . .

إن النظم ، وإن الحضارات ، لتمتحن بمدى ما تُقدم للرجل العادى من خدمات ، وما تهيب له من فرصة .. وما تضيفه عليه من تكريم .

ذلك ، لأن (الرجل العادى) يمثل المجموع ، ويشكل دوماً أكثرية المجتمع والأمة .

والنظم القويمة ، والقوانين العادلة ، إنما تُسنُّ فى الحقيقة لحماية (الرجل العادى) ، وإرباء حظوظه فى الحياة .

وفى المجتمعات التى تقوم على التمايز الباطل ، يقع (الناس العاديون) فريسة لطبقة معينة من الأشراف والسادة ، يلقون الرعب فى قلوب غرمائهم وضحاياهم ، ويستحوذون فى صفاقة وفُجْر على حقوقهم وأرزاقهم .

وفى مثل هذه الأوضاع ، تتمثل حماية (الرجل العادى) وتكريمه فى إعطائه الأولوية التى يستحقها بكدحه ، وبعمله .. وَمَنْحَه التقدير الأدبى والمادى الذى يرشحه له طول بلائه .. ثم تكون بزجر تلك العصابات الضالة المتغترسة النَّهَازَة التى تفتك بالعدل ، وبالحق .. وعزلها عن عرشها الزائف المغتصب .

ترى ، ماذا كان موقف يسوع ، ومحمد .. من الرجل العادى .. ؟
الإنسان الذى لا حول له من مال ، أو جاه ، أو منصب .

الستضعف ، الذى طالما يتخذ ظهره مرعى لسياط الطغاة .. !!

الكادح ، الذى طالما يصطنع عرقه نبيذاً ، يكرعه الجناة . . .
الحق أن موقفهما مع (الرجل العادى) يبهز الألباب .
وسنبصرهما الآن ، وهما يجذبان (الإنسان العادى) هذا ، ليأخذ
مكافئه فى الصف الأول .

ثم ، وهما ينهالان على كبرياء الأشراف الكاذبة ، فيمحققانها محققاً . . .
ولنبداً بالمسيح .

* * *

هل تبصرون هذا القائم هناك .. وسط هالة من صفاء روحه ..
وفى يمينه سفر « اشعيا » يقرأ منه . . . ؟؟

إنه هو ، عيسى روح الله وكلمته ، فلنصغ إليه :

« روح الرب مسحنى ، لأبشر المساكين ..

« أرسلنى ، لأشفي منكسرى القلوب ..

« لأنادى للمأسورين بالانطلاق ..

« وللعى ، بالبصر ..

« وأرسل المُنْصَحِّقِينَ فى الحرية » . . .

وهذا أيضاً .. المثل من بين الحشود الخافقة حوله .

إنه هو ، يتحدث :

« طوباكم أيها المساكين ، لأن لكم ملكوت الله .

« طوباكم أيها الجياع الآن ، لأنكم تشبعون » .

« طوباكم أيها الباكون الآن ، لأنكم

ستضحكون » .. !

إن المسيح يحدد مكانه في المجتمع حين يستشهد بكلمات اشعياء ،
ويتحدث بها كمنبراس له ، ومنهاج .

إنه مع المساكين ، كي يبشرهم .

مع منكسرى القلوب ، ليَجبر قلوبهم .

مع المأسورين ، كي يحطم أغلالهم وَيُطلقهم .

إنه مع (الإنسان العادي) الذي ليس معه من مال الدنيا ،
ولا من جاهها ، ولا من سلطانها ، ما يرد إليه حقوقه التي
اغتصبها منه الذين هم فوق .

لقد سلح الناس العاديين بأقوى الأسلحة ، الإيمان والأمل ، حين
قال لهم بلسان الرب القدير : طوباكم ..

وقفز بمكاثتهم الاجتماعية إلى الصدارة ، حين جعلهم من الأهمية إلى
حد أن يرسل الله من أجل حمايتهم ، وتصحيح أوضاعهم ، رسلا ..

« روح الرب مسحني ، لأبشر المساكين » ..

« لأنادي للمأسورين بالانطلاق » ..

إن هذه العبارة وحدها : « أنادي للمأسورين بالانطلاق » لتمثل
المفهوم الثوري لدعوة المسيح ، وتشير إلى الخطة الكاملة التي كانت
ستبدئ خلال نضاله من أجل الجماهير المهضومة .. لو قدّر لأيامه على
الأرض أن تطول .

هذا الروح الكبير ، الذى كان يعبر الطريق ، باحثاً عن
مفلوج ، ليشفيه .. أو مضرع ، ليداويه .
والذى يوصى كل مؤمن به ؛ فيقول :

« وإذا صنعت ضيافة ، فادع المساكين ، الجذع ،

الرج ، العى .. فيكون لك الطوبى » .. !

إنه يصحح بهذه الأساليب الملائمة للبيئة ، والعصر ، وضع (الرجل
العادى) فى مجتمع ينتهك حقوقه ويزدرجه .

لكن هذا ، لا يكفى .

وكل إيماء بالكرامة والأمل لذلك الكائن المقرر المرتعش ،
خليق بأن يذهب بدداً تحت وطأة الإذلال الموصول ، الذى يصبّه
عليه صَبًا ، السادة الأعْلُون .

إذن ، فلحساب (الرجل العادى) يقرر المسيح أن يخوض معركة
كبيرة مع أولئك الأشراف

أولاً : ليزجر غرورهم ، ويفتح أعينهم على آثامهم ومظالمهم .

وثانياً : ليُغرى بهم أولئك المستضعفين الذين يترنحون ، فرقاً
منهم وخوفاً .

ولقد فعل ..

وبدأ بالطبقتين اللتين كانت لهما على الناس وطأة مميّزة .. طبقة

الكتبة ، وطبقة الفرّيسين

وأمام حشد هائل من الناس ، واجههم ذات يوم .. ووقف
« ابن الإنسان » يتفجّر ذكاءً ، وعُنفواناً ، وصِدْقاً .
وقف وحده ، أعزل .. لا مال ، ولا سلاح ، ولا عصبية ،
ولا حزب .

وهذا ، هو الدرس .. ! فلو أنه قوى ، غنى ، مُدَجِّج بالأنصار
المتحفّزين ، ما تركت كلماته المقبلة في أنفس المستضعفين أثرها المرتجى ،
ولا حركت فيهم إرادة التحدى ، والمقاومة .

إن الدرس لنافع ، حين يُدغِغ كبرياء العصابة المستعلية ، رجلٌ
يُمثل حالة الجماهير تماماً ..

أعزل ، مثلاً هي عزلاء ..

فقير ، مثلاً هم فقراء ..

مضطهد ، كما هم مضطهدون ..

ولقد وُجد الرجل ..

وُجد روح الله وكلمته ..

وها هو ذا ..

الجموع من حوله ، وقد تعلقت به أبصارهم في انبهار ووجل ..

ودهاقنة الطبقة المستعلية ، أمامه ، وجهاً لوجه .. لا .. بل وجوهاً

منكسرة زاوية .. أمام وجه متهلل ، وجبهة عالية .

وفي سخرية ماحقة يبدأ حملته :

« على كرسيّ موسى ... »

« جلس الكتبة ، والفريسيون ! ..
« فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه ، فاحفظوه ..
ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا .. لأنهم يقولون
ملا يفعلون » ! ! ..

وتنبعث هممة استنكار من جانب السادة ، ولكنها تتلاشى سريعاً
في خضم الإعجاب الذي جاء من جانب الحشود ..
ويستأنف حديثه عن أشرف « أورشليم » الممثلين أمامه في الكهنة ،
والكتبة ، والفريسيين ؛ فيقول :

« إنهم يحزمون أحمالاً ثقيلة ، عسرة الحمل ،
ويضعونها على أكتاف الناس .. وهم لا يريدون
أن يحركوها بأصبعهم ..

« وكل أعمالهم يعملونها ، لكي ينظرهم الناس ..
فيعرضون عصائبهم ، ويعظمون أهداب ثيابهم ..
ويحبون التَّكَاثُرَ الأول في الولاة .. والمجالس
الأولى في الجامع .. والتحيات في الأسواق ..
وأن يدعواهم الناس ، سيدي .. سيدي » ! ! ..

ثم يندفع صوته في هدير ، حار ، متوهج ..
وتتعلق أبصار الجموع بكلماته كأنها الحصى ، والنجدة ، والملاذ ..
« .. لكن ويل لكم ، أيها الكتبة والفريسيون

المراؤون ، لأنكم تغلقون ملكوت السموات
قدّام الناس ، فلا تدخلون أنتم ، ولا تدعون
الداخلين يدخلون . . .

« ويل لكم ، أيها الكتبة والفريسيون المراؤون . .
لأنكم تأكلون بيوت الأرملة ، ولعلّة تطيلون
صلواتكم . . لذلك تأخذون دينونة أعظم » . . .

وتختلج على وجوه الناس بشائر قوة وعزم . . فيلقفها المسيح ، وينفخ
فيها من روحه لتنمو . . ثم يدمدم بسخريته على السادة :

« ويل لكم ، أيها القادة العميان . .
« القائلون : من حلف بالمهيكل ، فليس بشيء . .
ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم ! . .
« أيها الجاهل والعميان .

« أئماً أعظم . . الذهب ؟ أم الهيكل ؟ . .
« ويل لكم ، أيها الكتبة ، والفريسيون المراؤون .
« لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة . . تظهر من خارج
جميلة . . وهي من داخل مملوءة عظام أموات . . .
« وهكذا أنتم أيضاً ، من خارج تظهرون للناس
أبراراً ، ولكنكم من داخل ، مشحونون
رياء وإثمًا » . . .

لحساب من كانت تلك الحملة الصاعقة على محرّفى الشريعة ومستعبدى
الإنسان . . ؟؟

كانت لحساب « الناس العاديين » . . لحساب الإنسان ، وكرامته ،
وحقوقه . .

لحساب بعثه العظيم الذى جاء المسيح يمهّد له الطريق ، وينهى
عنه أولئك الذين « يحزمون أحمالا ثقيلة عسرة الحمل ، ويضعونها على
أكتاف الناس » .

والآن .. إلى رفيق عيسى ، وأخيه .. إلى « محمد » لنبصر موقفه
مع (الرجل العادى) .. وموقفه من مستغليه . .
ولسوف يبهّرنّا بمثل ما بهّرنّا به المسيح . .
ولا بدّع .. فروحاهما العظيمان ، سُقيا بماء واحد ، واصطنعتهما لنفسه
أحسن الخالقين . .

والتجربة لدى الرسول ، رائعة ، وحاسمة . .
إذ نشهد فيها الرسول نفسه ، وهو يتلقى من ربه الكبير خطّة
العمل ، والنهج الذى يحدد واجبه تجاه (الرجل العادى) . .

كيف . . . ؟؟؟

إليكم النبأ العظيم .

عندما أذاع « محمد » دعوته ، اقترب منه الفقراء ، والمستضعفون
شأن كل دعوة حية ، طالعة ، منقذة ..

و ذات يوم ، طرق باب الرسول مبعوث لأشراف مكة وكبرائها ،
يقول له :

« يا محمد ، إن أشرف قومك يرون أن يستمعوا لك ، ولكنهم
أن يجلسوا مع صعاليك مكة وفقرائها .. فإن شئت أن تجعل لهم يوماً ،
ولأتباعك يوماً .. »

والرسول بطبعه ، لا يحمل في نفسه ، ولا في تفكيره ، ولا في سلوكه ،
أدنى اعتبار لمثل هذا التمايز .

وهو إذن لا يرى بأساً في أن يجيب هذه الرغبة ، حتى يربح الإيمان
والفضيلة ، تلك النفوس الشاردة ، وعندئذ ، سيبحث هؤلاء أنفسهم
عن الفقراء والصعاليك ليجالسهم ، ويزاملهم ، بعد أن تلين قلوبهم
لذكر الله وما نزل من الحق .

ويطلب الرسول إلى الرجل أن يعود إليه في غد ، حيث يكون
قد فكر .. أو يكون قد جاءه من الله وحى .

وفي غد ، يرجع مبعوث الأشراف في ميعاده ، ليتلقى من الرسول
رفضاً أكيداً ..

ماذا حدث .. ؟

لقد جاءت كلمات الله ، تحمل للرجل العادى أعظم تكريم .

ألم يكن السادة يريدون لأنفسهم مجلساً غير مجلس الناس العاديين .. ؟ ؟

لا .. لن يكون لهم ذلك أبداً ..

« واضمِرْ نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، يريدون وجهه . ولا تعدْ عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ، وكان أمره فُرطاً » .

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء . فتطردهم ، فتكون من الظالمين » ..

انظروا ..

إن رغبة السادة هذه ، لو تحققت ما ترتب على تحقيقها ضياع حق للآخرين .. ثم إنها قد تفضي بقوم ضالين إلى الهداية ، والخير .. وعلى الرغم من هذا ، يرفضها الله في حسم ، ويعتبرها من زينة الحياة الدنيا التي لا ينبغي لرسول أن يريدها .. !

إن روعة هذا المشهد تتمثل في كشفه عن مكانة الرجل العادي في عين الله .. وفي تبيانها غيرة الله على ذلك الإنسان العادي .

إن الله سبحانه ، ليجعله موضوع وصية مفعمة بالحنان ، مترعة بالحبّة . حين يقول لنبيه :

« ولا تعدْ عينك عنهم » ..

ويعتبر التمايز ، طرداً لهم وظلماً .

فيقول لرسوله : « وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم ، فتكون من الظالمين » .. !!

ويسير الرسول وفقاً لهذا التعليم السيد الرشيد العظيم .. فلا يكاد يبصر الناس العاديين هؤلاء ، قادمين نحوه ، في أى ساعة .. في أى يوم ، حتى يتلقاهم بحفاوة ، ويبسط لهم رداءه ليجلسوا فوقه ، ويقول :
« أهلاً بمن أوصانى بهم ربى »

الإنسان العادى إذن . . الذى يمثل جبهة الأمة والشعب فى كل بلد .
كان وصية الله لحمد ، مثلما كان وصيته سبحانه للمسيح . . مثلما كان وصيته لكل نبي ، وكل رسول .

وكما رأينا المسيح يعمق هذا المعنى فى وعى تلامذته ، نرى الرسول يعمقه فى وعى أصحابه .

ذات يوم ، يمر به رجل بادية الفقر والمسكنة .
فيسأل النبي جلساءه :

« ما تقولون فى هذا » . ١

فيجيبون : « هو والله خلىق إن خطب ألا يُزَوَّج . وإن تكلم ألا يُصغى إليه » .

ويصمت الرسول حتى يمر رجل آخر عليه مخايل النعمة ومظاهر الثراء .. فيسألهم :

« ما تقولون في هذا .. » ؟؟؟
فيجيبون : « هو والله ، حَرِيٌّ إِنْ خُطِبَ أَنْ يَزَوِّجَ .. وَإِنْ تَحْدُثْ
أَنْ يُسْتَمَعَ لَهُ .. »
فيقول لهم الرسول :

« والذي نفسى بيده ، إِنْ الْأَوَّلُ ، خَيْرٌ مِنْ مِثْلِهِ
الْأَرْضُ مِنْ مِثْلِ هَذَا .. » ؟

هنا رسول ، يحرر قيمة الإنسان من زيف ، وزور . يحررها من
الأوضاع الكاذبة المفتعلة ، ويردها إلى مكانها الحق ، في جوار الخير ،
والعدل ، والحق ..

ولا يترك الرسول فرصة لتكريم الناس البسطاء العاديين ،
إلا اهتبلها .

يقف بين يدي الله داعياً ضارعا :
« اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَسْكِينًا ، وَأَمِيتْنِي مَسْكِينًا ، وَاحْشُرْنِي
فِي زَمَرَةِ الْمَسَاكِينِ » .
وإذ كانت « الجنة » تمثل في دينه ودعوته ، أرفع المثوبات ، وأبقاها
وأقصى الدرجات العُلى ، وأسماءها ، فقد أراد عن هذا الطريق ، أَنْ يَكْرِمَ
(الرجل العادى) تَكْرِيمًا ، يجعل الأشراف والسادة يتطامنون ،
ويتمنون لو لم يكونوا أشرافًا ، ولم يكونوا سادة .. ؟؟
ماذا قال « الرسول » في هذا المقام .. ؟

قال :

« قمت على باب الجنة ، فإذا عامة من دخلها المساكين » .
وهو يبحث دوماً عن الناس العاديين ، ليجالسهم ، ويقول :
« ابفوني - أى اطلبوا الى - ضعفاءكم »
ثم يقرر الصفة الاجتماعية لهم ، وكيف أنهم الكادحون ، المتعبون
للثروة ، وللدخل القوي .. فيقول :

« إنما تنصرون ، وترزقون بضعفائكم »
والرسول حين يستعمل كلمة « مسكين » وكلمة « ضعفاءكم » ، لا يعنى
بالمسكنة ، الهوان .. ولا يعنى بالضعفاء ، العجزة ..
وإنما يعنى الناس البسطاء الذين يأخذون في « الكادر » الاجتماعى
مكانا بسيطا متواضعا ..

ولم يقتصر تكريم الرسول للرجل العادى على تمجيده ، وتمجيد
تواضعه ، وحياته العاملة المتعفة .. بل شاركه هذه الحياة ..
لقد كان أكثر أهل المدينة فقراء ..
فالإنتاج محدود ، والدخل قليل ، فأخذ الرسول عليه السلام مكانه
إلى جوار الأثرية الفقيرة ..

كان يستطيع أن يحيا حياة أرغد ، بنصيبه من الفىء ، والغنائم ،
وبالهدايا التى لا تنقطع قوافلها .. ولكنه أبى .. وجعل ذلك كله
أو معظمه ، من حظوظ أمتة وأصحابه .. لا حبا في الجوع ، ولا اختيارا
للفقر .. ولكن مشاركة للأثرية ، ومعاناة لما تعانيه . تقول السيدة

عائشة زوجة الرسول :

« كان يأتى علينا الشهر ، ما نوقد فيه ناراً .. إنما هو التمر ، والماء » ..

وتقول :

« ما شبع آل محمد من خبز البرِّ ثلاثاً ، حتى مضى لسبيله » ..

وتقول :

« ما أكل آل محمد أكلتين في يوم واحد إلا وإحدهما تمر » ..

ويقول هو ، عليه الصلاة والسلام :

« لقد أُخِفْتُ في الله ، ما لم يخف أحد .. وأوذيت في الله ، ما لم يؤذ أحد .. ولقد أتى على ثلاثون ما بين يوم وليلة ، ومالى ولبلال من الطعام ، إلا شئ يواريه إبط بلال » .. !!

مرة أخرى .. لم تكن هذه الزهادة عن حاجة وفقدان دائماً .. بل كانت طريقة مختارة ، وخطة مقصودة .. ولقد فتحت عليه دنيا من الخيرات ، فما غير من سلوكه هذا شيئاً .. بل كان حين يجيئه النىء ويوزعه بين أصحابه ، يرجىء ابنته « فاطمة » ويقول : « حتى يكتفى الناس أولاً » .. !!

وكثيراً ما كانت الأعطيات تتقاصر دون حاجات الآخذين.. ولا تنال فاطمة منها منالاً ، فترضى ، وتصبر ، لأن أباهما العظيم قد وضع لأهل بيته شعاراً فخواه « أن محمداً وأهله ، هم أول من يجوع ، إذا جاع الناس .. وآخر من يشبع ، إذا شبع الناس » ..

لم يكن هذا السلوك من الرسول عن خصاصة إذن .. لا .. ولا كان تمجيداً للفقير الذى جعله الرسول فى بعض أحاديثه توأم الكفر .

إنما كان :

* تكريماً للكدح ..

* وإعزازاً للبساطة ..

* وتوقيراً للرجل العادى ، الذى هو الأمة ، والشعب ..

وللإنسان حقوق كثيرة ، لا بد من صيانتها ، حتى يستطيع أداء دوره فوق الأرض .

وعلى رأس هذه الحقوق جميعاً .

* حق معاشه ..

* وحق ضميره ..

وإن هذين الحقين ليكادان يلخصان حقوقه كلها، تلك الحقوق التى تفتحت عليها أبصار وبصائر الرسلين الكبارين الكريمين ، محمد ، والمسيح .

أما حق المعاش ، فيعنى تحقيق كافة الظروف الاقتصادية التى تهيم
للإنسان حياة عادلة ، رغيدة .

وهو لهذا ، يهدف إلى حماية الإنسان من الاستغلال والنهب ..
وحماية الثروة العامة التى هى حق الناس جميعاً ، من ضراوة المحاباة ،
ومن كل فنون السرقة ، والسفء ، والاختلاس ..
لقد دمدم المسيح كثيراً بكلمات لاهبة على أولئك الذين يستمرثون
عرق الكادحين ؛ وحقوق العاملين .
أولئك :

« الذين يأكلون بيوت الأرمال ، ولعلة يطيلون
الصلاة » .

و « الذين يظلمون الفعلة ، والحصادين ، بينما صياحهم
قد وصل إلى رب الجنود » .

وإنه لجدير بأن يفعل ، وما كان ليترك الظالمين إلى العدل ، يعانون
جفاف الخلق ، واستعمار الهجير ، بينما حفنات من المترفين والمستغلين ،
يتبذخون فى البهجة ، والظل .

ما كان له أن يصرف نفسه عن هذا الوضع ، فإنه ليعلم أن عاقبة ذلك
الفساد والوبال للأمة التى يعيث فيها هذا التمايز الظلوم ..
إنه يقسم الأمة على ذاتها ، ويمزقها ..

و « كل مملكة منقسمة على ذاتها ، تخرب .. وبيت

منقسم على نفسه يسقط « ..!! »

لقد كان الوضع الاقتصادي في الجماعة اليهودية أيام المسيح .
رديئاً ، وقاسياً ..

كان وكلاء « روما » وتجار اليهود ، ورؤساء الكهنة سواء
في التآمر على عرق الكادح ، ولقمة الجائع .

ولقد تفتحت عينا المسيح في طفولته ، وفي شبابه على الشياطين الباغية ،
تسلخ ظهور الناس من أجل ضريبة تأخروا في دفعها .

ولو طال به العمر ، لكان له مع هذه الأوضاع الشاذة وقفة
طويلة ، وحامية .

لكنه رغم السرعة الوامضة التي لبثها مع دوره العظيم على الأرض ،
وعلى الرغم من المنتهى القريب الذي تعجل رحيله ، لم يترك ذلك الوضع
دون أن يصححه بكلمات مضيئة وجامعة .

قال لتلاميذه الاثنى عشر حين أرسلهم يكرزون بملكوت الله :

« لا يكن لواحد ثوبان » ..

وهتف طويلاً بكلمات سلفه الشهيد « يوحنا » :

« من له ثوبان فليعط من ليس له .. ومن له

طعام ، فليفعل هكذا » ..

وذاث يوم ، وهو يعبر الطريق وديعاً كأنفاس الزهر في فجر الربيع ،

لقيه واحد من الناس ، وسأله :

« أيها المعلم الصالح .. ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية » .. ؟؟
فأجابه :

« لماذا تدعوني صالحا .. ؟؟ ليس أحد صالحا
إلا واحد ، وهو الله .
« أنت تعرف الوصايا .
« لا تزن .. لا تقتل .. لا تسرق .. لا تشهد
بالبزور .. لا تسلب .. أكرم أباك وأهلك » .
قال الرجل : « يا معلم ، هذه كلها حفظتها منذ حداثتي » .
فأجابه المسيح :

« يُعَوِّزُكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ ..
« اذهب ، بع مالك ، وأعط الفقراء » .. ١١
وهكذا ، فإن ابن الإنسان ، وهذه دعوته ، وهذا منهجه وسلوكه ،
لا يمكن بحال ، أن يقر أى نظام يقوم على استغلال العرق ، واحتكار
الرزق ، وتجميد الثروة ، وتعويق فرص المعيشة الكريمة الطيبة ..

* * *

ويحيى محمد رسول الله ، فيصون حقوق العمل ، والعرق ، بتعاليم
تناهت في الرشد ، والذكاء :

« أعطوا الأجير أجره ، قبل أن يجف عرقه » .
« لا تكلفوا الصبيان الكسب .. فإنكم متى

كلفتهم الكسب سرقوا .

وحين يكون هذا الأجير خادماً ، يرتفع محمد بمستواه ، ويعلو ..

« لا يقولن أحدهم عبيد .. وأمتي .. وليقل
فتاى وفتاى » .

« .. هم إخوانكم فأطعموهم مما تطعمون ، وألبسوهم
مما تلبسون » ..

ولا تكون الثروة مشروعة وحلالا ، إلا إذا كانت من كسب
طيب ..

والكسب الطيب ، هو الذى لا مكان بين وسائله ، للأناية ،
ولا للاحتكار ، ولا لاستغلال الكادحين والعاملين ..
ولأموال الشعب ، عند محمد حرمة جدّ عظيمة ..

إنه ليفقر كل الخطايا ، ويتلمس المذرة لشتى الآثام . إلا جريمة
واحدة ، يرفع في وجهها وفي وجوه مرتكبيها قصاصاً مشحوداً ..
هذه الجريمة هي : العدوان على مال الشعب .

انظروا ...

أتاه ذات يوم ، رجل ، نادماً يعترف في إسفار بجريمة « زنا »
ارتكبها ..

وبعد أن استمع الرسول لقوله ، أراد أن يفتح له على المغفرة ،
وعلى النجاة نافذة .. فقد لمح من ندمه الضاغط ، ومن توبته

الصادقة ، ما ينبغي بعزم أكيد على الاستقامة .. ومضى يحاول ثنى الرجل عن اعترافه .. كي يتحلل هو من إنزال العقوبة به .. ولكن هذا التسامح الرحيب ، يكاد يختفى تماماً ، ليحل مكانه غضب مدمم ، وقصاص رهيب .. حين تكون الجريمة عدواناً على أموال الأمة ..

كان له - عليه الصلاة والسلام - خادم ، اسمه « رفاعة بن زيد » .. أصابه في إحدى الفزوات سهم فأنهى حياته .. وبعد انقضاء القتال ، أقبل أصحابه عليه يعزونه في خادمه ، وقال قائلهم :

« هنيئاً له ، يا رسول الله .. لقد ذهب شهيداً » .
فأجابه الرسول في أسى :

« كلا .. إن الشملة التي أخذها من المغانم يوم خيبر ، لتشتعل عليه ناراً » .. ١١

أرأيتم ؟ ..

إن هذه الشملة ، ما دامت جزءاً من غنيمة ، أوفى ، ليست ملكاً لأحد .. إنها حق الجماعة كلها ، حتى ينال كل حظه ونصيبه .

ولقد أخذها الغلام ، وما تساوى أكثر من دراهم قليلة .. ولقد خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات شهيداً .. ومع هذا كله ، بقي مطوّقاً بوزره الصغير .

ولكن ، من قال إنه وزر صغير ٢٢٠٠ ؟
إنها السرقة .. يستوى فيها القروش الضئيلة .. والملايين الكثيرة .
سيّما حين تكون سرقة أموال عامّة .

ويعلم الرسول صلى الله عليه وسلم يوماً ، أن أحد الولاة ، قبل
هدية .. فيغضب غضباً شديداً ، ويستدعيه إليه ، فيأتى حثيثاً ..
ويسأله الرسول صلى الله عليه وسلم :

— كيف تأخذ ما ليس لك بحق ٢٢٠٠ ؟

ويجب الوالى معتذراً :

— لقد كانت هدية ، يا رسول الله .

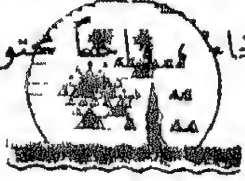
ويسأله الرسول :

« أ رأيت ، لو قعد أحدكم فى داره ، ولم نُؤَلِّه عملاً ..

أ كان الناس يهدونه شيئاً » ١٢٠

ويأمره أن يرد الهدية إلى بيت المال .

ثم يعزله عن ولايته وعمله . !

هكذا أعطى المسيح ، وأعطى الرسول حق المعاش للإنسان ،
من عنايتهما ، ومن تعاليمهما ، ما يجعل العمل من أجل التوزيع العادل
للثروة .. والتوفير السكامل للرخاء ..  محتوماً على المؤمنين بهما ،
السائرين على نهجهما .

والآن .. إلى حق الضمير .

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliothèque d'Alexandrie

لست أعنى بالضمير هنا ، الوظيفة النفسية التي تثير في الإنسان الندم على شرّ ارتكبه ، أو تحفّزه إلى خير تقاعس دونه .
إنما نعنى بالضمير الإنساني في مقامنا هذا ، غاية أبعد ، ومعنى أرحب ..

نعنى به في عبارة واحدة موجزة : « الإنسان في وجوده الحقيقي » .
هذا ، هو الضمير الذي سنرى الآن كيف حمى المسيح حقه ، ورفع محمد لواءه .

إن الذي قال : « لم يخلق الإنسان من أجل السّبّ ، وإنما خلق السّبّ للإنسان » ، جدير بأن يكون صاحب فضل عظيم في تحرير الضمير البشري ..

ولقد قالها المسيح .. ولا أكاد أعرف عبارة تلخص حقوق الضمير البشري ، وتعلن جلاله ، أوفى من هذه الحكمة الفذة العظيمة ..
ولنبداً من البداية ...

حين تقدم المسيح ليعانق دوره العظيم ، ويبلغ رسالات ربه ..
كان الضمير الإنساني في تلك الرقعة من الأرض التي يسير عليها ، مصفداً بأغلال مبهمة ، وثقيلة ..

كانت « المساومة » تمحّقه ، وتذلّه ..
فكل سكيننة نفس .. كل طمأنينة قلب ..
كل مغفرة ترجى .. كل فضيلة تلتبس ..
كل حرّية تراد .. يتقاضى عليها رؤساء الكهنة أجراً .. !!

كل عطاء ديني بثمر .. دخول الهيكل بثمر .. التماس البركة
بثمر .. الصلاة للرب بثمر .. !!
وهكذا يترشح الضمير في لوائح مساومة موحلة ، ومتاجرة مسفورة ..
حتى تحوّل إلى « آلة حاسبة » كل عملها ، أن تحصى موبقات أصحابها ..
ثم تحصى أثمان مغفرتها ، وكفارتها .. !!
هذا ، أوّل .

* كذلك كان الضمير « مجداً » لحساب أهواء ، وتقاليد ،
وطقوس ، لا تسمح له بمناقشتها ، ولا باستحسان غيرها ، حتى لو يكون
خيراً منها ..

ويرزح تحت وصاية غبية ، يقيمها حرّاس هذه التقاليد وسدّتها .
وهكذا عاش الضمير في كبت قاتل ، لا يملك حق المعارضة ، ولا حق
التعبير عن نفسه .

لا يستطيع أن يناقش مساوىء الحكم ، لأنّ حكام « روما »
وجنودها ، لا يرحمون من يفعل ..
ولا يجرؤ أن يناقش خرافات الكهّان ، وضراوة التقاليد ، لأنّ
الكهّان أشدّ قساوة وغلظة .

* وشيء آخر .. فالضمير البشري في هذه البيئة ، كان يعاني
اختناقاً مريراً ..

كانت عنصرية ضيقة عطنة ، تحتبسه داخل كهفها المظلم ، بعيداً

عن هواء التسامح المنعش ، والأخاء الرطيب الحانى .. ذلك أن
« شعبُ الله المختار » كما كان اليهود يسمون أنفسهم ، يعيش داخل
مركب نقص شنيع .. يوحى إليه دائماً أنه خُلِق ليحكم العالم ، ويسود
الأرض ..

وأنه أشرف من كل الأجناس ، والألوان ، والأمم ..
وأنه ينبغي ، بل يلزمه أن يصون دمه وسلاطاته عن التلوث
بالدخلاء ..

والدخلاء ، هم جميع بنى آدم من غير اليهود !! ..
ولا شيء يقنى الضمير الإنسانى ، ويمحقه مثل تفكير من هذا
النوع ، وحياة من ذلك الطراز .

والآن ، يتقدم « روح الله » المسيح عيسى ابن مريم ، ليحرر
ضمير الإنسان فى تلك الرقعة ، وفى ذلك الزمان من ويلات أسره ،
وظلمات سجنه .. ولتظل كلماته ومواقفه التى سيحرر بها الضمير ،
دستوراً حافزاً مضيئاً لكل البقاع .. وكل الأزمان .
بدأ ، فأنقذ الضمير من وطأة المساومة ، وحرره من ربكة النفعية .

وإذا كانت ، هذه المساومة ، تعتمد على التخويف الدينى ،
وتستغل الضعف الإنسانى ، أدناً استغلال .. فقد بدأ عمله هنا ،
ببعث الثقة فى رحمة الله ومففرته .. كما دغدغ ضراوة الشعور الحاد
بالذنب حين يكون هذا الذنب فردياً ..

أما حين يكون إثماً « جماعياً » أى رذيلة « طبقة » خاصة ، تحقق

لهذه الطبقة نفعا ، أو امتيازاً ، أو سلطاناً غير مشروع .. فإنه يدمدم ،
ولا يتسامح ..

حدث الإنسان الضعيف ، عن « الأب السماوى » .. الرب البار
الرحمن الرحيم :

« .. من منكم — وهو أب — يسأله ابنه خبزاً ،
فيعطيه حجراً .. أو سمكة ، فيعطيه حية .. أو بيضة ،
فيعطيه عقرباً .. ؟ ؟

« فإن كنتم — وأنتم أشرار — تعرفون أن تعطوا
أولادكم عطايا جيدة .. فكم بالحرى أبوكم الذى
فى السماوات . يهب خيرات للذين يسألونه » .. ؟ ؟

وتأتبه الخاطئة ، يزفها الكهنة والجلادون فيلقى عليها نظرة طيبة آسية
يلمح خلالها الضعف الإنسانى الكامن فى كل إنسان .. ثم يرفع بصره
صوب غلاظ الأكباد ، قساة الضمائر ، وقد ملأوا أيديهم بالحجارة الحادة
تأهباً لرجعها ، فيقول لهم كلماته الماثورة :

« من كان بلا خطيئة ، فليرمها بحجر » .. !

ومضى الرغم من هدوء كلماته هذه ، فقد نفذت إلى أفئدتهم كرصا
مقذوف ..

وتمثلت لهم خطاياهم .. وإذا احتواهم ذهول وخزى .. التفت هو
نحو المرأة ، وسألها :

« هل دانك أحد ؟ ؟ »

وأجابته :

كلا ، يا معلم .

فيقول لها ، وهو يخاطب فيها الضمير البشرى العابع المقدوح تحت
وطأة إحساسه المذل بالخطأ :

« ولا أنا أدينك .. اذهبي ، ولا تخطئي » . ۱۱۱

إنه موقف جدير بابن الإنسان .. ابن الإنسان الذى جاء ليخلص
الأنفس لا ليهلكها ..

وأولئك المدفونون أحياء تحت ركام الخوف ، والهول ، والخطيئة
جديرون بيده الحانية الرحيمة ، تأخذ بهم فى رفق كبير إلى إله طيب ،
بر ، كريم ..

وليس معنى موقفه هذا إباحة الإثم ..

أبدا .. فهو لا يفتأ يذكر بحق أنفسنا علينا ، بل ويعلمنا أن الخطيئة
نفسها جزء من الأغلال التى يرسف فيها وجودنا ، وعلينا ، ونحن نحررها
أن نقطعها عن نزواتها .

« ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله ، وأهلك نفسه
أو خسرها » ..

لكنه ، وهو يدعونا لتحرير أنفسنا من الإثم ، إنما يفعل هذا بروح
أخ ودود .. لا جلاد كُنُود ..

لكأنه ، وهو يرمى « الخاطئة » بنظرته الوديعه ، كان يسأل نفسه :
إذا نحننا عن هذه ، الخاطئة .. فماذا يبقى .. ؟
يبقى الإنسان .. !!

حسن هذا .. وكل البشر إذن كذلك .
وإذن مرة أخرى ، فلا ينبغي أن نسحق أرواحهم وضماؤهم ووجودهم
باللوم القاتل .. إنما علينا أن نوقظ فيهم « الإنسان » ليطرد عنهم
« الشرير » ..

ذلك منهاج ابن الإنسان الذي لم يأت ليطبب الأصحاء .. بل ليعالج المرضى
والذي لم يأت ليدعو « أبراراً للتوبة » ، بل خطائين .

والآن نشهد موقفاً آخر له ، فتغمرنا حرارة مودته ، ودفء حنانه ..
ونجد فيه الأب ، والأخ ، والصديق .. والقلب الكبير .. الكبير ..
السَّمح .. السَّمح .

ذات يوم دعاه أحد الفرّيسيين إلى طعامه ، وإذ هو جالس ينتظر
الطعام ، اقتحمت عليه الدار في اضطراب وتعثر ، امرأة .

لم تكد تبصره حتى أكبّت على قدميه تغسلهما بدموعها ، ثم تجففهما
بشعر رأسها ، ثم تعود فتضمخهما بطيب كان معها .

ويجيء الفرّيسي من داخل داره ، فيرى المشهد ، ويبصر المرأة
فيعرفها .. إنها واحدة من بائعات اللذة والهوى ..

ويفرك يديه مسروراً ، فهذه فرصة جدّ طيبة لاختبار المسيح ،

فإن يك مسيحاً حقاً ، فسيعلم الآن ، من هذه التي تلمسه ، وتقبل قدميه .

ويقرأ المسيح حديث نفسه هذا .. ويلقى عليه ، وعلى الدنيا كلها درساً ، موجهها الحديث إلى تلميذه « سمعان » وكان ساعتئذ معه :
« يا سمعان ..

« عندى شئ ، أقوله لك » .

• « قل ، يا معلم »

ويستأنف المعلم العظيم حديثه :

• « كان لمداين مديونان »

« على أحدهما خمسمائة دينار .. وعلى الآخر خمسون »

• وإذ لم يكن لهما ما يوفيان ، سامحهما جميعاً

« فقل : أيهما يكون أكثر حباً له » ؟؟؟

ويجيب « سمعان » :

« أظن ، الذى سامحه بالأكثر »

ويقول السيد المسيح :

• « بالصواب حكمت »

ثم يلتفت شطر الإنسان ، شطر المرأة الخاطئة .. التي ذهب عنها « الشرير » ، وبقي فيها « الإنسان » ، ويقول لها وعلى شفتيه الودودتين ابتسامة كضوء الفجر :

« إيمانك ، قد خلّصك ..

« اذهبي بسلام » .. III

أى قلب ذكى ، كان يحمله يسوع . ؟؟

وأى بر بالضمير الإنسانى أسخى من هذا البر . ؟؟

أى صداقة ، تشدّ أزر الإنسان فى ضعفه ، أوّفى من هذه الصداقة . ؟
وموقف آخر ، يُعمق به هذا الفهم فى وعى الناس ، ويطالبهم أن
ينتهجوه ، ويتخذوا منه سلوكا .

يسأله « بطرس » :

« كم مرة يخطئ إلىّ أخى ، وأغفر له ؟ هل إلى سبع مرات ؟
ويجيبه المسيح :

« لا أقول لك إلى سبع مرات ، بل إلى سبعين مرة »

وعلى طريقته العذبة السديدة ، يضرب مثلا ؛ فيقول :

« يشبه ملكوت السموات ، إنسانا ملكا ، أراد

أن يحاسب عبيده .. فلما ابتدأ فى المحاسبة ، قدم

إليه واحد مديون بعشرة آلاف وزنة .. وإذ لم

يكن له ما يوفى ، أمر سيده أن يُباع هو ، وامراته ،

وأولاده ، وكل ماله ، ويوفى الدين ..

« نغر العبد وسجد قائلاً : يا سيد ، تمهل على ،
فأوفيك الجميع .

« فتحنّ سيد ذلك العبد ، وأطلقه ، وترك له الدين .
« ولما خرج ذلك العبد ، وجد واحداً من العبيد
رفقائه ، كان مديوناً له بمائة دينار ، فأمسكه ، وأخذ
بعنقه قائلاً : أوفنى مالى عليك ...

« نغر العبد رفيقه على قدميه ، وطلب إليه قائلاً :
تمهل على فأوفيك الجميع .. فلم يرد ، بل مضى وألقاه
فى سجن حتى يوفى الدين .

« فلما رأى العبد رُفقاؤه .. ما كان ، حزنوا جداً ،
وأثوا وقصّوا على سيدهم ما جرى .

« فدعاه حينئذ سيده ، وقال له : أيها العبد الشرير ،
كل ذلك الدين تركته لك ، لأنك طلبت إلى ..
أفما كان ينبغي أنك أنت أيضاً ، ترحم العبد رفيقك
كما رحمتك أنا » ١٤٠٠

هكذا يقيم المسيح بين الناس تكافلاً وتضامناً ، ضدّ الآثام ، التى هم
فيها سواء ، وشركاء .. وضد وطأتها الضاغطة على الضمير البشرى ،
حين تتخذ أداة تحقير له ، وإذلال :

« إن فرح السماء بخاطئ واحد يتوب ، أكثر من
تسعة وتسعين باراً ، لا يحتاجون إلى توبة » ١

« اغفروا إن كان لكم على أحد شيء ، لننسى يقفر لكم أيضاً أبوكم الذى فى السماوات » .

وماذا صنع المسيح بثانية الأثافى التى كانت تدغدغ الضمير الإنسانى وتؤودُهُ .. وهى حرمانه من حق الشكوى والمعارضة ؟ !
لقد كان موقفه من هذه عظيمًا وحاسمًا ، مثل مواقفه جميعًا ..
ولقد رأينا من قبل ، كيف واجه رؤساء الكهنة ، والكتبة ، والفرّيسيين ، أمام الحشود من الناس .. وكيف سخر منهم ، وناداهم :
يا أولاد الأفاعى .. وهم الذين تعودوا تقديسًا مطلقًا ، أو شبه مطلق .
لقد كان المسيح بخطبته تلك ينادى الضمير السجين إلى تمرد مشروع
وحين كان يأخذ طريقه إلى الهيكل ، ووجد الباعة ، والصرّافين ،
والكهان المحترفين ، يملأون رحابه .. أقبل عليهم ، يكفأ موائد
السيارفة ، ويبعثر سلعمهم ، وينادى :
« مكتوب ، إن يبنى بيت صلاة ، وأنتم جعلتموه
مغارة لصوف » !

ثم يهز رأسه فى غيظ مضطرم ساخر ، لكنه وديع ، ويقول :
« يا أولاد الأفاعى .. !
وهو يرسم لتحرير الضمير نهجاً قويمًا حين يقول :
« تعرفون الحق .. والحق يحرركم » .

الحق يحرّرنا ... ؟

ما أوفّاها عبارة ، وما أغناها حكمة .

ليس الهوى ، ولا القوة ..

إنما هو الحق وحده ، القادر على أن يهب الإنسان تحرّراً صادقاً ،
رشيداً ، لا زيف فيه ولا تأويل .

وأمام الحق ، لا يجوز لشيء ما ، أن يقف ، ويتشامخ .

ولسوف يضرب المسيح لهذا مثلاً من سلوكه حين يتحدّى عقيدة
« السبت » تحدياً أخاذاً .. وبذلك يبعث « حق المعارضة » بعنا عظيماً
ويهب الضمير البشرى خلاصاً أكيداً .

قرأتم في الصفحات الأولى من هذا الكتاب ، أن اليهود تركوا
« أورشليم » تسقط في أيدي الغزاة السلوقيين .. عندما اختاروا المهاجتها
يوم سبت .. وآثر اليهود سقوطها على أن يقاتلوا يوم السبت ، حيث
تمجّد البطالة وتقّس الراحة ... !

وهذا ، يشير إلى مدى ما كان لخرافة السبت في أفئدتهم وفي عقولهم
من رسوخ وولاء ..

إنهم — يوم السبت — لا يكرزون ، ولا يبالغون ..
ولا يعملون عملاً .

فإذا جاء من يتخطى هذا كله ؛ فيكرّز يوم السبت ، ويعظ ،

ويداوى .. فقد ضرب التقاليد الضارية ، ضربة قاضية .. وفتح
للضمير المفدوح بثقلها الجاثم ، وجوها الخانق الآسن ، نافذة على الأفق
المشرق ، والهواء النقي .

ولقد فعلها المسيح ، ولم يقم وزناً لثورة الكهان ، والفرّيسيين ،
بل جعلهم بسخريته الذكية صفاراً مبهوتين ١٠٠
جاءته امرأة في يوم سبت تعاني علة موجعة ، فنجحها المسيح من روحه
ما غالبت به مرضها ، ووجدت بسببه البرء ، والعافية ..
ووجدتها رئيس الجمع فرصة مواتية ، ليشنّ على المسيح هجوماً
« مقدساً » ١٠٠

واقترب منه ، والناس يسمعون ، وقال له :
« كيف تبريء في يوم السبت » ؟ ..
وأراد المسيح أن يلقيه درساً لا يفيق منه ، فقال موجه الخطاب إلى
مقامه الكهنوتي الرفيع ١١٠٠
« يا مُرَآئِي ...
« أفئن سقط حمارك في بئر يوم السبت ، أنقذته
وأبرأته ...
« وحين يمرض إنسان ، تتركه في علته إلى يوم
الأحد » ١١٢٢٠٠

أهناك كلام يقال في هذا المقام ، أعذب ، وأمتع ، وأروع ، وأنفذ

من هذا الكلام . . ؟

ومرة أخرى ، أرادوا أن يلوموه ، لأنه يركز في يوم سبت . .
فأجاب بعبارة الجامعة :

« إنما خلق السبت من أجل الانسان ، ولم يجعل

الانسان من أجل السبت » . . !

إن الإنسان عند المسيح ، هو الشمس التي تدور حولها قوانين
المجتمع وتسير . .

وإن له عنده مكانة عظمى . .

« الحق أقول لكم ..

» إن من قال لهذا الجبل ، انتقل ، وانطرح

في البحر .. ولا يشك في قلبه .. بل يؤمن أن

ما يقوله يكون .. فهما قال ، يكون له » ..

وهو إذ يضع عن الضمير الانساني بذخ السلطان ، وضراوة التقاليد ..
وإذ يقيمه في مكان الند والنظير لكل سلطة أخرى على الأرض ،
فيناقش كما ناقش المسيح ، ويعارض مثلما عارض ، ويمتزّ بالحق ويتبعه ،
كما اعتز المسيح به وتبعه .

هو إذ يفعل هذا ، لا ينسى أن يوصي تلامذته الذين يتمثل فيهم
الضمير الناشئ ، المستيقظ ، ألا يتحولوا يوماً ما ؛ إلى سلطة تعوق
الضمير . وتكبله من جديد بما تنتهجه من غطرسة ، وضعف ، واستعلاء .

استمعوا له ، وهو يقول لهم :

« أأنتم تعلمون أن الذين يحسبون رؤساء الأمم ،
يسودونهم .. وأن عظماءهم ، يتسلطون عليهم ..
فلا يكون هذا فيكم ..

« بل من أراد أن يصير فيكم عظيماً ، يكون
لكم خادماً ..

« ومن أراد أن يصير فيكم أولاً ، يكون
لجميع عبداً ..

« لأن ابن الإنسان أيضاً ، لم يأت ليُخدَم ، بل
ليُخدَم ، وليبذل نفسه فديةً عن كثيرين » ..

وأما الوصاية التي كان يفرضها على الضمير الانساني جماعة المنتفعين
بالتقاليد الغريبة ، والأساطير الضحلة ، فقد ألغاه المسيح بعبارة
حاسمة .. وذلك حين قال واحد من الجمع :

يا معلم ، قل لأخي يقاسمني الميراث ..
فإذا هو يجيب :

« يا إنسان ، من أقامني عليكما قاضياً ،
أو مقسماً » .. ١٩

إنه موقف يفنى عن مواقف .. وإنها عبارة تمثل دستوراً .

إن المسيح بها ، يسلم الضمير وثيقة رشده ويدعوه لمواجهة مسئولياته ، بعيداً عن كل وصاية متطفلة ..

والآن ، إن موقفه من الآفة الثالثة ، التي كان الضمير الإنساني يعانيها في البيئة التي جالجت فيها كلمات روح الله . هذه الآفة ، هي العنصرية ..

كان « شعب الله المختار » ١١ يعيش كما قلنا من قبل ، داخل عقده هذه ، منطوياً على نفسه ، وعلى نواياه الرديئة جداً ، ضد الناس جميعاً . ولكن ، قبل أن نستطرد في حديثنا هذا يحسن أن نعرف علاقة الضمير بالعنصرية .

لقد ذكرنا حين بدأنا الحديث عن الضمير الإنساني ، ما نعنيه بهذا الضمير .

وقلنا : إننا نعني به « الإنسان في وجوده الحقيقي » .. والوجود الحقيقي للإنسان ، يعني التعبير الكامل عنه ، وفتح الطريق أمام طاقاته ، وإمكانياته .. والانسان .. هو : الإنسان .

لا قيمة لاختلاف اللون ، واختلاف اللغة ، واختلاف القوم . وإذا كان الناس خلال تطورهم ، قد عاشوا أمماً ، وشعوباً .. فإن شيئاً أسنى من ذلك يظلمهم ، ويحتويهم داخل إطاره ، ويناديهم

إلى نفسه .. هو : الإنسانية ..

والعائلة البشرية ، حقيقة موجودة منذ وجد الإنسان .. ولكن ظهورها كواقع يتطلب ظروفًا ، على الإنسان أن يعمل من أجل توفيرها ، ومن أجل تَعَجُّل ميقاتها .. وفي هذا يتحقق المفهوم الصحيح لاسمه ، ويتبدى الوجود الحقيقي له .

وإذن ، فكل تضليل له عن هذا الهدف ، وكل تقاعس به عن تلك الغاية ، يعتبر انتزاعًا له من وجوده الحقيقي .. وبالتالي فهو انتهاك لحقوق الضمير الإنساني الذي عرّفناه من قبل بأنه « الإنسان في وجوده الحقيقي » ..

ونعود لحديثنا الأول .. حيث كنا نقول إن اليهود كانوا يعيشون في « قوقعة » معتمة ، من عنصرية حاليّة .

وتحرير الضمير الإنساني ، يتطلب تمزيق هذه القوقعة ، وتسريح هذه العنصرية .. أو بتعبير آخر .. فإن هدم هذه العنصرية يعتبر عملاً جليلاً ، ونافعاً بالنسبة لتحرير الضمير البشري .

فإذا فعل المسيح تجاه هذا الأمر .. ؟

اقرأ .. واعجبوا ..

كان يكلم الجوع يومًا ، وإذا أمه وإخوته ، يجيئون ، ويذهب من يقول له : أمك وإخوتك يريدون أن يتحدثوا إليك .

فيجيب :

« من هي أمي ؟ ومن هم إخوتي » ؟؟؟ !

ثم يبسط كفه المضيئة صوب تلامذته ، ويقول :
« ها ، أمى ، وإخوتى .. لأن من يصنع مشيئة أبى
الذى فى السموات ، هو أخى وأختى وأمى » ١١ ..

ويسلب من اليهود المفهوم الزائف المزور ، الذى يبرّون به
عنصريتهم المسعورة .

لقد كانوا يعتمدون على وعد يزعمون أن الله أعطاه لإبراهيم ..
ويفسّرون هذا الوعد تفسيراً يرضى غرورهم ، وعنصريتهم ، وطمعهم
فى احتلال الأرض كلها ١ ..

كما كانوا يتبذّخون على الناس بأنهم أبناء إبراهيم ..
فانظروا ، كيف يجردهم من هذه ، ويتركهم عُرّة ١ ..
« يا أولاد الأفاعى ..

« لا تقولوا لنا إبراهيم أباً .. لأننى أقول لكم :
إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً
لإبراهيم ..

« والآن .. قد وضعت الفأس على أصل الشجرة .

« فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً ، تقطع وتلقى

فى النار » ١ ..

يا لصدق الكلمات ، ويا لروعتها ..

إن انتسابكم لإبراهيم لا يفيدكم شيئاً ما لم تكونوا مثله صالحين .
وليس هناك بشرٌ أفضل من بشر .
ولكن هناك شجر يعطى ثمرأً جيّداً فسيبقى ، ويزدهر .. وشجر
يعطى ثمرأً رديئاً ، فهذا له الفأس ، تجتثّه ، وتبيده .
فيا أيها اليهود ، تحولوا إلى شجرة طيبة ، إذا أردتم أن
تعيشوا ، وتحيوا ..

أرايتم ؟؟..
أرايتم إلى « يسوع » العظيم ، وهو يكافح العنصرية ، ليحرر الضمير
الإنسانى من ربقتها .. ؟
ألم يكن الدرس فى أوانه ، وفى مكانه ، حين قاله وألقاه . ؟
وأليس ، يحىء فى أوانه مرة أخرى ، حين نردده اليوم ،
ونرويّه ۱؟؟..

وفى مثال عذب فأتى حكيم ، يخرج الناس من قوقعة العنصرية ..
« ليس أحد يوقد سراجاً ، ويفطيه بإناء ،
ويضعه تحت سرير ..
« بل يضعه على منارة ، لينظر الداخلون
النور » .. !

كذلك الأمم ، والشعوب ..
كل أمة تملك نوراً .. تملك علماً .. تملك ثروة .. تملك ذكاء

ليس من حقها أن تنطوى عليه .. بل تضعه على المنارة .. تقدمه
في غير مَنْ ، وفي غير أذى للبشرية كلها .. فنحن جميعاً عائلة واحدة
فوق هذا الكوكب الرحيب .

ويوجه للعنصرية ضربة مباشرة في حكمة يرويها ، ومثل يضربه ..
وذلك حين سأله سائل : مَنْ قريبى ؟؟

فأجاب:

« كان رجل مسافراً من أورشليم ، إلى أريحا ..
وكان الطريق مخوفاً بأخطار اللصوص ، وقطاع
الطرق .. فنصحته زوجته بالتريث حتى يجد من
يرافقه في سفره .. وإذ ذاك انبرى ابنه الصبي
يقول : إن والد صديق له يزعم السفر في نفس الطريق .
« وكان الآخر ، سامرياً .. فلم يكذب الأب يعلم هذا ،
حتى انتفض كمن لدغته عقرب ، وصاح بابنه : كيف
تصادق ابن سامري نجس .. ؟ أما تعلم أن السامريين
تصاهروا مع العجم منذ مئات السنين . ؟ إن فعلتك
لو عرفت ، لأثرت في عملي وتجارتي .

« ورفض الرجل اقتراح ابنه الصغير ، وسافر منفرداً .
فهاجمه اللصوص في الطريق . وسلبوه ماله وثيابه .
وأصابوه بجرح ، ثم تركوه بين حي وميت .
« وسر به كاهن ؛ فرآه .. لكنه تغاضى عنه .
ومضى في طريقه ..

« ثم مر به رجل من عشيرته ، فتجاهله
وواصل سيره .

« وأخيراً ، مر به « سامرى » ؛ فمطف عليه ،
وتوقف ، ففسل جراحه ودهنها بالزيت . ثم أركبه
على دابته ، وأوصله إلى فندق . وأوصى صاحب
الفندق أن يعتنى به .. ثم نفحه مالا كدفعة أولى ،
على أن يتقاضاه بقية النفقات فيما بعد » . . .

قصّة المسيح هذه القصة ، وضرب هذا المثل ، ثم أتبعه بسؤال :
« أى هؤلاء ، يكون قريباً للمسافر » . ؟
فأجاب الرجل :

« من صنع معه الرحمة » .

هنالك قال المسيح :

« إذن ، اذهب ، وافعل هكذا » .

لقد جمع المسيح فى هذا المثال كل ملامح العنصرية الشائنة . .
كما ساق فى نفس المثال ، العنصرية إلى معركة خرجت منها خاسرة
منهوكة .. إن يهود « أورشليم » كانوا فى قطيعة مع السامريين ، لأنهم
أصهروا إلى العجم . !

هنا يكشف المثال عن إيغالهم فى العنصرية .

وكانوا — أى يهود أورشليم — يحاربون من بنى جلدتهم كل من
يعامل السامريين ، أو يخالطهم ..

ولكن ، حين وقع الرجل فريسةً لقطاع الطريق ، الذين ربما كانوا
يهوداً من بني جنسه .. مرّ به « كاهن » .. فلم يهتم بأمره .. ١٠٠
ومر به « سامري » .. أى واحد من الذين يمتقتهم ، ويقاطعونهم ،
ويعتبرهم رجساً ونجاسة .. فسارع إليه ، وغسل جراحه ، ودهنها
بالزيت ، ثم حمله على دابته إلى فندق .. حيث استأجر له فيه مكاناً
طيباً مريحاً .. ١١٠٠

هذا ، هو القريب ، والصديق إذن ..
الذى يفعل الخير ، ويبذل العون ، مهما تكن جللته .. مهما
يكن معدنه وقومه ..
وهكذا يزكّي المسيح ، الأخاء الإنسانى ، ويحطم سدود العنصرية
المنحرفة ، المتبربرة .
فالناس جميعهم لدى المسيح إخوة .. وإخوة ضعاف ، يستحقون
العون ، وبذل ذات اليد ، والنفس .. وإنه ليصوغ هذه الوجهة
فى نبأ جليل ، فيقول :

« .. ومتى جاء ابن الإنسان فى مجده ، وجميع
الملائكة القديسين معه .. فحينئذ يجلس على كرسي
مجده .. ويجتمع أمامه جميع الشعوب .. فيميز
بعضهم من بعض — أى يعزل صالحها عن
فاسدها — .. »

« ثم يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا مباركى

أبى .. رثوا الملكوت المعدّ لكم منذ تأسيس
العالم .. لأننى جمعت فأطعمتمونى .. عطشت
فسقيتمونى .. كنت غريباً فأويتمونى .. عرياناً
فكسوتمونى .. مريضاً فزرتمونى .. محبوساً ؛
فأتيتم إلىّ !!..

« فيجيّب الأبرار حينئذ قائلين : متى رأيناك
جائعاً فأطعمناك .. ؟ أو عطشاناً فسقيناك .. ؟
ومتى كنت غريباً فأويناك .. ؟ أو عرياناً
فكسوناك .. ؟ ومتى رأيناك مريضاً ، أو محبوساً
فأتينا إليك .. ؟ ؟

« فيجيّب : الحق أقول لكم .. بما أنكم فعلتموه
بأحد إخوانى هؤلاء الأصاغر ؛ فبى فعلتم » !!..

لم يقل بما أنكم فعلتموه بقومى .. بشعبى .. بيهود أو耶شلیم ..
بل قال : بأحد إخوانى ..

وإخوانه ، كما قال من قبل ، هم الذين يعملون مشيئة الرب ،
بغض النظر عن جنسيتهم ، وأرؤمتهم ..

ومشيئة الرب ، أن يعيش الناس إخواناً .. أحراراً ..
خيرين .. سعداء ..

هذا — فى إيجاز — هو موقف المسيح من الضمير الإنسانى .

فهل نتجه الآن إلى محمد رسول الله ، لنطالع موقفه من الضمير
الإنسانى أيضاً ؟؟..
وإنه لموقف باهر ، وعظيم .

« هَلَّا شَقَّقْتُ عَنْ قَلْبِهِ » . . ؟
لو كُنَّا هناك ، ومحمد رحمة الله للعالمين ، يلقي هذه العبارة ، لرأينا
مشهداً عجيباً . .
ولرأيناه ، وهو ينشئ لحقوق الضمير الإنسانى « برج حراسة » شاهق
الارتفاع ، بحكم النظرات . .
لقد ذكرنا من قبل أن الضمير كان مفدوحاً بوطأة آفات ثلاث :
* المساومة والتخويف .
* الإذعان الذى يحظر عليه النقاش والمعارضة ، ويلزمه بالخضوع
لوصاية منهكة . .
* العنصرية التى تحرمه من تحقيق وجوده الصحيح ، داخل إخاء
إنسانى رحيب .
وأمام هذه الطواغيت الثلاثة ، التى رأينا — قبلاً — كيف أبلى
المسيح فى مكافحتها ، وقف محمد ليجهز عليها ..
ولسوف يمضى كما مضى أخوه عيسى .. يرسل فى مثل سنا الفجر ،

تعاليمه ، ويدعو في رفق لاحترام الضمير .. وترك الإنسان يحيا
داخل وجوده الحقيقي ..

وحين يتناول الشر أمامه ، ويتشامخ ، فلن يدعه يتمكن منه ..
ويعتاق زحف النور الذي معه .. بل سيلقاه بالجواب الأشد ..
ويضع رأسه العنيد تحت حد السيف .

وحق حين يتمثل هذا الشر في قوى عارمة رهيبة ، لإمبراطوريتين
كبيرتين ، كفارس ، والروم .. تواصل دعوة محمد زحفها لمطاردته .

ومن خلال هذا كله .. التعاليم المسألة ، ومعارك المقاومة ..
تبرز حقوق الضمير على نحو جليل وفذ .

ولنبداً من البداية ..

كان الناس يعبدون الأصنام ، ويستقسمون بالأزلام ، ويزجرون
الطير ، ليستنبطوا منها في سذاجة أمر مستقبلهم ، وخفايا غيوبهم .

وجاء محمد ليحرر هؤلاء الناس .

ماذا فيهم سيحرره .. ؟

سيحرر عقولهم من الخرافة ..

ويحرر وجداناتهم من الإفك ..

وينقذ وجودهم من الضياع ..

وينشر دعوته ، ويبلغ رسالات ربه .. ويصير له أصدقاء مؤمنون ،

وأعداء مكذبون .

و ذات يوم ، يجيئه أحد أصحابه مستأذناً في طرد واحد يعتقد أنه منافق يتظاهر بالاسلام ليؤذى المسلمين ، ويشفى في نفسه موجدة وشرأ ..

وتقدم من الرسول يعرض رأيه .. طرد هذا الرجل من صفوف الجماعة .. لأنه يضم لها شرأ ..؟؟
يضم شرأ ؟!

لكن ، أى تطفل على سرائر الناس هذا .. ؟
وأية رقابة على الضمير الذى جاء محمد ليساعده على النهوض . ؟
ويسأل الرسول صلى الله عليه وسلم صاحبه :
— « هلا شقت عن قلبه » ؟ !

ويعود الرجل فيشكلم :
يا رسول الله ، إنه يخفى في نفسه غير ما يعلن ..
ويحييه الرسول صلى الله عليه وسلم :
— « إن الله لم يأمرنى أن أشق صدور الناس
لأرى ما فيها » . ١ .

عبارة وجيزة ، صيغت في بساطة ويُسِر ، لكنها تحمل مضموناً يشكل دستوراً هائلاً ، وحافلاً .. يحى الضمير ، ويضع حريته بمنأى من التقحم والافتيات ..
وفي هذه البداية المشجعة ، تتمثل نقطة انطلاق الضمير في شريعة محمد ..

فهذه الرعاية لحرمة ، والتقدير لحرية ، لا يمنحان تدليلاً له ،
ولا إفلتاً لزممه .. بل ليتعود حمل المسؤولية واختيار المصير ..
« يا فاطمة بنت محمد ..

« اعملى ، فأنى لا أغنى عنك من الله شيئاً » ..

« من يعمل سوءاً يجز به » ..

« ليس للإنسان إلا ما سعى » ..

حين جاء محمد ، وجد الناس الذين بدأ بينهم دعوته ، يتعثرُونَ
فى وجود زائف ، وَيُمارسون حياة مزورة ..
وما داموا ، لا يعيشون فى وجودهم الحقيقى ، فالضمير الانسانى ،
إذن يعانى محنة ويترنح إعياء ..
ولقد كان ذلك حاله ..

كان مستعبداً لأساطير الأولين ، ومنحنياً دائماً فى مذلة وغفلة ،
أمام حجارة مرصوفة ، تسمى الآلهة .. !!
وكان مجرد وجود صوت يقول : لا .. بمثابة إطلاق — أكيد —
سراح هذا الضمير ، ودعوة له ليمارس وجوده ، وحرية ..
ولقد جاء الذى سيقول : لا ..
وهو : محمد رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ..

وسيكون التاريخ هناك ، ينتظر سماعها منه ، ليبدأ من
فوره شوطاً طويلاً ، ممتعاً ، جليلاً ، يطوف خلاله بمعظم الأرض ،
عابداً دعوة محمد .. معلناً نهاية الوثنية .. ساحقاً بقدمه ، أو طاوياً

بيمينه ، أصنام العرب ، ونار الفرس ، وعبادة قيصر ، وهاتفاً بسيادة
الإنسان على الأرض ..

فليس فيها بعد اليوم أ كذوبة يعبدها ، أو قوة يسجد لها ..
الذين يعبدون « قيصر » لن يعبدوه بعد اليوم ..
والذين يسجدون للنار ، لن يسجدوا لها بعد اليوم ..
والذين يطوفون حول الأصنام ، لن يطوفوا بعد اليوم ..
وستنقطع جميع الخيوط غير المنظورة ، التي تربط هؤلاء ، وأولئك
بمعبوداتهم الباطلة ، وآلهتهم الزائفة .
وسيقف الإنسان فوق الأرض سيداً لا عبداً .. تدفعه إلى غايته
حركة جديدة تابعة منه ، لا من أصنام ، ولا من أزلام ، ولا من قيصر ،
ولا من كاهن ..

وشطر السماوات العلى .. سَيِّمُ وجهه ، حيث إله آخر ..
إله واحد .. إله حق ..
لا ينام .. ولا يمرض .. ولا يموت .. ولا يحقد ..
إله ليس قيصراً .. ولا حجراً ..
« سئل الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، عنه ذات يوم :
كيف رأيت ربك .. ؟؟
فأجاب :

« نور ، أننى أراه » ..

أجل .. هو نور السموات والأرض .. هو قوة عالية ، عادلة ،

تملاً الكون ، وتنبثُ في الكائنات جميعاً ، انبثاثاً عظيماً مسيطراً ..
وإنا لنكاد نراه في أنفسنا .. في الشمس .. في مياه النهر ..
في النبات الأخضر .. في اليبس والجمد .. في الحركة والسكون
في السماء .. وفي الأرض ..
يسأل الرسول جارية : « أين الله » .. ؟
فتجيبه : في السماء ..
فيرضى عن جوابها ، ويقول : إنها مؤمنة ..
ولكنه في موطن آخر يقول :
« إذا كان أحدكم يصلى ، فلا يبزق أمامه ، فإن
الله تجاهه » ..

ويقول مرة ثالثة :

« لو ألقى أحدكم دلوه في بئر ، لوقع على الله » ..
حتى ليكاد يتركنا نحسب أن الله هو الحياة .. أو هو رُوح الحياة ،
فهو أمامك ، وعن يمينك ..
هو في الشمس الطالعة ، وفي الماء الجارى .. وفي الأفق الشرق ..
« ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير » ..
ألم يكن محمد يبشّراه هذه .. بفهمه هذا الله .. يطلق الضمير
الإنسانى من قيود يرسف فيها أمام قيصر يعبد .. أو صنم يذل له ..
أه نار يسبّح بحمدها ..

ألم يخرجهم من دائرته المغلقة .. ويقذف به إلى الجهات الأربع ..
يخلق في رحلة صاعدة ... ؟ ؟ ؟
عندما يأخذنا من أمام الأصنام ، ومن بين أيدي القياصرة المعبودين ،
ويقول لنا :

إذا كنتم تريدون الله ، فانطلقوا صوب الحياة ..
« أينما تولوا .. قَتَمَ وجه الله » .. ١١
« ما يكون من نجوى ثلاثة إلا — هو — رابعهم
ولا خمسة إلا — هو — سادسهم ، ولا أدنى من
ذلك ، ولا أكثر ، إلا — هو — معهم » . ١
ماذا نفهم من هذه الآيات .. ؟ ؟

أما أنا ، فأفهم أنها تؤدي دوراً جليلاً ، غاية الجلال في تحرير
الضمير الانساني من سخرية الألوهية الزائفة التي كانت تُذِلُّه وتُضِلُّه ،
وتفسد عليه رؤاه ..

ولنعد إلى الحديث الذي بدأنا به حديثنا هذا ..
رأينا ، كيف أعلن الرسول عليه الصلاة والسلام ، أنه لم يجيء ليشق
صدور الناس ، ويتجسس على سرائرهم ، ونواياهم ..
إنه إذن يصون حرية الضمير ، ويعلمن حقوقه .. ويصون حرية
التفكير ، لأن التفكير عمل من أعمال السَّريَّة .. فنحن نفكر
في أنفسنا ، ومع أنفسنا .. ولا يطلع على تفكيرنا أحد ، إلا حين نعبر
نحن عنه بأية وسيلة من وسائل التعبير ..

و حين نحمّل ضمائر حرّة .. أى حين نحيا فى وجود حقيقى غير
زائف ولا مبتسر .. فإن تفكيرنا بالتالى ، يكون حراً .. ويكون
سديداً .. ويكون منشئاً وعظيماً .

ماذا يفسد الضمير ، ويفقده حريته وسيادته .. ؟

إنهما : الترغيب الباطل ، والترهيب الجائر ..

أى : المساومة ، والخوف ..

نفس المشكلة التى واجهت المسيح من قبل وهو يعالج مأساة الضمير .

ولسوف يُجهزُ عليها « محمد » فى إبداع ، وفى إعجاز ..

(أ) ليس بين الله ، والناس ، وسطاء ..

(ب) لأنه ليس أحد أحق بالوساطة من أحد ..

(ج) لأنه لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود ،

ولا تمايز أبداً بين الناس .

(د) والامتياز الوحيد ، إنما هو للعمل الأصدق ، والأصح ،

والأنفع ..

(هـ) فإذا كنت صاحب عمل صادق ، صالح ، نافع .. فيد الله

فوق يدك ، من غير أن تطلبها ..

(و) وإذا لم تكن .. فليس ثمة من يمنحك جواز المرور .. لأن

« جوازات المرور » كلها لدى واحد لا يتكرر ، ولا يحاى ،

ولا ينقض سنته وقوانينه .. هو : الله ..

وإذن ، فليذهب السامسة جميعاً إلى الجحيم إن شاءوا !!!
لقد انقض سائرهم وأُتْحَلَّتْ إلى الأبد ، السوق التي طالما سرقوا
فيها القلوب والجيوب ..

إن محمداً يتكلم .
إنه يذيع نعي السامسة والوسطاء .. فاسمعوا رَئِينَه المذب ،
وقوله الصادق :

« إذا سألت ، فاسأل الله ..
« وإذا استعنت ، فاستعن بالله ..
« واعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوك .. لم
ينفعوك إلا بشيء ، كتبه الله لك ..
« ولو اجتمعوا على أن يضروك ، لم يضروك إلا بشيء ..
كتبه الله عليك ..

« واعلم أن النصر ، مع الصبر » .. !!
« اعملوا ! ... »

« فكلُّ ميسر لما خُلِقَ له » ..

ثم يُركِز المسؤولية في يد الضمير :

« إن الله ، لا يغير ما يقوم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم » ..
« من اهتدى ، فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضلَّ ،
فإنما يضلُّ عليها » ..

« ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ ، وَزِرًا أُخْرَى » . ؟

« الحق من ربكم » ..

« فمن شاء فليؤمن .. ومن شاء فليكفر » .. ١١

« وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِلْهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ ،

وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ » .. ١١

أى عظمة ، وأى صدق ، وأى خلاص من وطأة الوساطة ،

والسَّمسرة ؟؟

وأى مواجهة للضمير الإنسانى بمسئوليّاته ، أوضح من هذه

للمواجهة .. ؟؟

إن أى إنسان تُثْقَلُه أخطاؤه وذنوبه .. ثم يدعو من يساعده

فى وَضْع حمله الذى يُبْهِظُه .. لن يجد الحبيب .. !

« وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ » .. ١١

أنت وحدك ، عون نفسك .

فتقدم .

كن خَيْرًا ، إن شئت .. أو شَرًّا ١١

كُن صَالِحًا ، إن أردت .. أو فَاسِدًا .

الحل حلك .. والمسئولية مسئوليتك .. والمصير مصيرك .

وهذا أرق ما يمكن أن يحرّر به الضمير .

فهو إذ يُعطى وثيقة حريته .. يعطى معها وفي نفس الوقت ، زمام
مُسؤوليته .. !!

إن « المسؤولية الشخصية » تقسح هنا ، لتشكّل وجوداً جديداً ،
يمارس فيه الضمير البشرى حريته ممارسة ناشطة ، ممتلئة ، فعّالة .

« لا تكسب كل نفس إلا عليها » ..

« من جاهد ، فإنما يجاهد لنفسه » ..

« لا تُسألون عما أجرمنا .. ولا نُسأل عما تعملون »

« لا يملك بعضكم لبعض نفعا ، ولا ضرراً » !!

والآن ، فمع محمد ، مرة أخرى ، بل مرات ، بل دوماً .. لنبصره
في جلاله ، وهو يحرر الإنسان ، ويحرر الحياة .

لقد رأيناه وهو يجهز على المساومة ، وعلى الوساطة التي تجعل الضمير
الإنساني تابعاً ، وسلعة .

والآن نراه وهو يحرّره من الخوف .

إن شرّ ألوان الخوف ، هو : الخوف من أنفسنا .

إنك قد تخاف « شعباً » . ولكن خوفك سينتهى
باكتشاف حقيقته .

وقد تخاف « ظالماً » ولكن خوفك سينتهى بانتهاء ظلمه .

وقد تخاف فقراً ، أو مرضاً ، أو كرباً ولكن خوفك سينتهى

بمجاوزه الفقر إلى الفنى ، والمرض إلى العافية ، والسكر إلى الفرج .

أما حين تخاف نفسك .. فإنك تصاب بشرّ ما يمزقك .. ؟

لماذا .. ؟ ؟ ؟

لأن نفسك لا تفارقك أبدا ، ولو غادرت الأرض كلها إلى السماء ،

وإذن فستظل مخاوفك معك ، تحيط بك ، وتملى لك ، وتفقدك سكينه

نفسك ، وتُتَبَّر وجودك تتبيرا .. !

وخوف النفس ، ينميه الفهم المغاوط لطبيعتها ، والمبالغة في تجسيم

أخطائها ..

عندئذ يلفح الضمير نوع ردىء قاس من الشعور الحاد بالإثم ، يشطر

الذات الواحدة شطرين ، ويقسمها إلى معسكرين . ؟

ويشعل فى الشخص الواحد المنقسم على ذاته « حربا أهلية » مضنية .. !

وفى هذا ، يتقدم الرسول ليتابع القيام بواجبه تجاه تحرير الضمير .

إنه لا يتغاضى عن الذنوب ، إذا كانت جرائم « طبقة » . أو جرائم

« سلطة » ..

ونعنى بجرائم « الطبقة » ، تلك التى تشكل مقاومة لمصالح الجماعة ،

وحقوقها ، وتقدمها ..

ونعنى بجرائم « السلطة » ، تلك التى تُستغل فيها الوظيفة ، أو

المركز ، فى انتهاك مال ، أو إهدار حق ..

أما تلك التى يفرزها الضعف الإنسانى ، فى نطاق فردى : فهو بها

جدٌ رحيم .. !

وكما قال المسيح من قبل : « من كان بلا خطيئة ، فليرم بحجر » .
يقول محمد : « كل بنى آدم خطاء » ..

ولأنه ليضع أخطاءنا الأخلاقية فى مكانها الطبيعى ، بوصفها « إفرازاً »
يكاد يكون حتمياً ، لوجودنا ، ولطبيعتنا .. فيقول :

« والذى نفسى بيده ، لو لم تذنّبوا ، لذهب الله بكم ،
ولجاء بآخرين يذنبون ، فيستغفرون ، فيغفر لهم » ؟
إن الرسول ، لا يحرض بهذا على الخطأ ، والرديلة ..
ولأنما يشير إلى قانون هام من قوانين حياتنا .. ذلكم ، هو « قانون
التجربة ، والخطأ » .

إن الذنب هنا يعنى : الخطأ ..

والاستغفار ، يعنى : التجربة ..

لأنه — أعنى الاستغفار — يمثل الموقف الذى نحاول فيه استرداد
أنفسنا ، وغطائنا عن الخطأ الذى كانت تقارقه ..
وهذه ، تجربة ..

ذلك أن التجربة ، ليست هى الحادثة التى تحدث لنا ..

بل هى ، موقفنا من الحادثة نفسها ..

وبيث الرسول فى الضمير مزيداً من الطمأنينة ، فيضرب هذا
المثل :

ذات يوم ، وهو يسير مع أصحابه ، يبصر على الطريق أمّاً تضم

طفلها في شغف كبير ، وفي حنان أكيد . . فيقف متأملاً ، ثم يسأل أصحابه :

— « أترون هذه الأم ، طارحة ولدها في النار » ١٩.

ويجيب أصحابه رضي الله عنهم :

« أبدأ ، يا رسول الله » . .

فيعقب الرسول ، قائلاً :

« والذي نفس محمد بيده . .

« لله أرحم بعبده المؤمن ، من هذه بولدها » !!

ويتلو محمد آيات ربه في هذا المقام .

وإذا كان الشعور الحاد بالذنب يعزلنا عن أنفسنا ، ويسبب خوفنا

منها ، ويضعف ثقتنا بها .

وإذا كان الرسول ، قد أبعد عنا وطأة هذا الشعور ، حين ضاعل من

خطورة ذنوبنا وأخطائنا . .

فإنه أيضاً ، في نفس اللحظة . . ولنفس السبب ، قد كثره إلينا الخطايا ،

وحذرنا من ارتكابها . .

فليس من المعقول أن يُعنى بتطهير المصّب ويفعل أمر المنابع .

وإذن ، فهو حين يدعونا إلى الفضائل ، وحين ينهانا عن الرذائل . بل

وحين يلح أحياناً في دعوته هذه . فإنه لا يعنى التحكم في الضمير ، إنما

يريد أن يبتعد به عن دواعي الخوف وأسبابه .

ويريد له أن يحتفظ دوما بأمنه وسلامه .
« فالذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، لهم مغفرة ورزق
كريم » .

« ومن يعمل سوءاً ، أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله
يجد الله غفوراً رحيماً » ..

بل إنه ليذهب في إفساح آماذ الأمل والرحمة مذهباً بعيداً ، بارآ ..
فيدعو صاحبه « أبا هريرة » ذات يوم ، ويقول له : يا أبا هريرة ،
اذهب ، وبشر كل من يلقاك بالجنة ..
ويتهج « أبو هريرة » لهذه المهمة الطيبة التي ستنزله في قلوب الناس
منزلاً مباركاً ، إذ يبشرهم بأعظم بشرى ينتظرونها ..
ويمضى مهرولاً .. يبشر كل من يلقاه بالجنة .
ويلمح .. « عمر بن الخطاب » قادماً ، فيجرى نحوه سعيداً بالجميل
الذي سيسديه إليه ، فيرجح به قلبه .. ١ ..
ويلقاه ، ويعانقه ، وبصيح :
يا عمر .. أبشر بالجنة ..

— الجنة .. ؟؟ ومن أنباك هذا .. ١؟؟
أنبأني رسول الله يا عمر .. قال لي : اذهب وبشر كل من يلقاك
بالجنة ...
ويظن عمر أن أبا هريرة قد أصابه شيء .. ، فيأخذ بتلايبيه

في صرامة ، ويقوده أمامه إلى رسول الله ، ليستجلى الخير ..
وبين يدي الرسول ، يتأكد عمر من صدق صاحبه .. ولكنه
يشير على الرسول ألا يفعل .. حتى لا يتكل الناس على عفو الله ،
فيتركوا العمل ، ويتقاعسوا عن الخير .

بعد هذا ، يحىء دور الآفة الثانية من آفات الضمير .
وهي حرمانه حقه في المناقشة ، والمعارضة ، ووضعه تحت وصاية غبية
من التقاليد البالية . ومن سدنتها ، وحماها .
والرسول مع هذه ، جولة موفقة ..
ومجرد ظهوره ، كرَسُول ، كان « نعيًا » لها ، وقضاء أكيداً عليها ..
فلقد كان عمله ، المناقشة ، والمعارضة .. وتسريح أولئك الذين يزعمون
لأنفسهم من دون الناس ، حق التوجيه والوصاية .
إنه يحدث الناس عن ربه :

« سيروا في الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق » ..
ويطوِّف بهم بين آيات الكون وعجائبه ، ثم يقول :
« إن في ذلك لآيات للعالمين » ..
« إن في ذلك لآيات ، لقوم يعقلون » ..

ويسلك مع الناس سلوكًا ، من شأنه أن يفرى الضمير الإنساني
بالمناقشة ، وبالمعارضة .

يقول له « أعرابى » : يا محمد : أعطني ، فليس المال مالك ،
ولا مال أبيك ..

ويهرع إليه عمر غاضباً ، يريد أن يطرحه أرضاً ، أو يجهز عليه ..
فإخذه الرسول فى ابتسامة عذبة ، ويقول :
« دعه يا عمر .. »

« إن لصاحب الحق مقالاً » .. ١١

وهو — عليه السلام — يلوم السليبيين ، الذين لا يواجهون الخطأ
بالتقويم ، وينهى الناس عن أن يكونوا كذلك :
« لا يكوننَّ أحدكم إمعة .. »

« يقول : إذا أحسن الناس ، أحسنت . . وإن
أساءوا ، أسأت » ..

« ولكن ، ليوطن أحدكم نفسه ، إذا أحسن الناس ،
أن يُحسن .. وإذا أساءوا ، أن يتجنب إساءتهم » .. ١١
وإنه ليدمدم على التقاليد التى انتهى دورها ، ثم لا تزال تتلكأ ،
وتتشبث بالبقاء .. ويعزلها عن الضمير الإنسانى لىبأشر دوره مع الحركة
الجديدة للتاريخ .

ويسخر من الذين يقولون كلما دعوا إلى التقدم : « إنا وجدنا آباءنا
على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » .

ويرثى لمصير الذين لن ينفالوا صداقته يوم يقوم الناس لرب العالمين .
لأنهم « كانوا يرجعون بعده القهقرى » ١١

ويقول مبارِكاً نهج الحياة في التغير والتطور ، وهاتفاً بنا ، كي
نسارع دوماً إلى نداء التجديد القويم الصالح :
« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة .
من يجدد لها دينها » ..

ولقد دمر الوصاية على الضمير الإنساني ، حين أعطاه حُرَيْقَه ، وحمّله
مستوليّاته على النحو الذي رأيناه من قبل .. كما اعترف بحقه في الخلق ،
والابتكار ، والتصرف ، حين قال للناس : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » .. !

أما موقفه من ثلاثة الأوثان التي كان الضمير يترنح منها ، وهي :
العنصرية .. فما أروعهُ وهو ينقض بناءها حجراً ، من بعد حجر .. !!
لقد عرف — جيداً — المنزلة التي بَوَّاهُ اللهُ إياها .. ووضعهُ فيها ..
إنه نذير يخرج في قومه ، وبشير .

وقومه — وهنا تأخذ كلمة « القومية » أصدق مفاهيمها ، وأحقها
بالإكبار والإجلال — ..

قومه ، هم العالم .. دون أن ينقص ذلك من ولائكَ لوطنك وعشيرتك
أجل ، هو رسول الله إلى العالم ليهديه بالحكمة والموعظة الحسنة ..
العالم كله .. حاضره ، وغائبه .. قريبه ، وبعيده .. صالحه ، وزائفه !
« إني رسول الله إلى الناس كافة » .

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ..

وحين يسأل عن أفضل الأعمال ، يجيب وما أبهره من جواب :
« أفضل الأعمال ، بذل السلام للعالم » . ؟

بذل السلام للعالم ... ؟؟؟

لكأنه يقولها اليوم .. وكأنه تخرج الآن من بين شفتيه
الودودتين غضةً ، رطبةً ، حانيةً ، دافئةً ، هاديةً ، جليلةً ... ! ! ! .

أنى يكون للعنصرية — إذن — فى دعوته مكان .. ؟ ؟
إن العنصرية ، أنانية جشمة مظلمة ، ولقد عاش الضمير الإنسانى فى
حماتها حتى كاد يفقد ذاته .. وكل تحرير له منها ، يمثل تحريراً باهراً
للإنسانية كلها ، إلى الأبد .
من أجل هذا ، أمره ربه أن يقول :

« يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ..
وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » ..

أى لتكون غايتكم ، التعارف ، والتآخى .. !
وفى التطبيق العملى لهذه الدعوة الجليلة ، يمضى محمد كالضوء .
فـ « سلمان » الفارسى .. يأخذ مكانه إلى جوار « أبى بكر »
و « عمر » القرشيين .. !
و « بلال » الحبشى ، يكون مكانه فى السلم الاجتماعى ، ذورته وأعله .

بينما « أبو جهل » الزعيم القرشي ، يهوى في تقدير الرسالة إلى
حضيض ليس له قرار .. !

ذلك أن العمل الصادق من أجل تقدم هذا « العالم » وسلامه .. هو
الميزان الذي يحدد أقدار الناس .

وبلال الحبشى .. كان من العاملين الصادقين .. لأن الدعوة التي
سار تحت لوائها ، كانت تقدماً بالحياة ، وبالزمن ، وبالناس إلى الأمام ..

كانت تأخذهم من معاطن الركود ، والبلى ، والجهل ، إلى حياة جديدة
حافلة بالحركة ، وبالتطلع ..

أما أبو جهل ؛ فكان من أقطاب الرجعية ، والوقوف .. لهذا أخذ
مكانه في أدنى السلم حتى دفعه الزحام أخيراً إلى التراب .. !

أليست رائعة ، وعظيمة .. وقفة هذا الإنسان الكبير ، في قرية
متواضعة هي « المدينة » .. منذ ألف وأربعمائة عام .. يمزق راية
المنصرية . ويسوق القافلة إلى إخاء رحيب ، ويتحدث عن « بذل
السلام للعالم » .. ١١٢٢ !

أجل . إنها كذلك .. سيما حين نرى في زماننا هذا ، ذى
المدنية الباذخة ، والحضارة الشائخة ، دُولا ، وشعوبا تنادى
بالمنصرية ، وتقيم لها الصرح .. !

إن حاجتنا لأكيده ، ومستمرة . لتلاوة الإعلان الذى أذاع

به « محمد والمسيح » ، حقوق الضمير الإنسانى ، وخلصاه به من
أصفاده التى كان يعانىها ، ويقاسيها .

ولم يكن ثمة أى اعتبار لدى محمد ، للقوارق التى تستطيع إذا أهل
حطامها ، أن تخلق طبقة باغية ، أو عنصرية مستعلية ..

لا اللون ، ولا الجنس ، ولا الثروة ، بل ولا الدين ..
لا شيء من هذه جميعاً يأذن له الرسول بأن يفرّق بين الإنسان ،
والإنسان .

ومن جهة اللون ، والجنس ، والثروة ، يقول فيما يقول ..
« كلكم سواسية كأسنان المشط » ..

ومن جهة الدين ، يقول عن ربه ..

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي
أوحينا إليك .. وما وصينا به إبراهيم ، وموسى ،
وعيسى .. أن أقيموا الدين ولا تفرّقوا فيه » ..

ويقول :

« الأنبياء إخوة . أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد » ..

وهو ، كرسول للإسلام ، يعامل أهل الكتاب معاملة الأخ
والندّ .. ما لم تحمله ضرورات حرب على سلوك آخر طائزىء ، لا يلبث
أن يزول بزوال تلك الضرورات ..

لم تكن لدعوة « محمد » عليه الصلاة والسلام حدود إقليمية ..
ولم تأخذ أبداً طابع التعصب ، ولا العنصرية ..
انظروا ...

حين قدم المدينة ، وجد اليهود يصومون يوم « عاشوراء » ..
فسألهم : لماذا تصومونه ؟؟
فأجابوه : إنه يوم عظيم .. أنجى الله فيه موسى ومن معه .. فصامه
شكراً لله .. ونحن لهذا نصومه .
فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :
« نحن أحق وأولى بموسى منكم » ..
وصام « عاشوراء » .. وأمر المسلمين بصيامه !!
هذا رسول « إنساني » الرؤى .. « عالمي » النهج .
ومن ثم ، لم يكن للعنصرية في حياته ، ولا في دعوته مكان .

هكذا حرّر « محمد » ، كما حرّر « المسيح » الضمير البشري
من الأخطبوط الذي كان يحتبسه ، ويمحقه ، والذي أفضنا في الحديث
عنه ، وفي الحديث عن الإجراءات التي اتخذها ضده ، الرسولان
الكريمان !!

ونود أن نذكّر بما قلناه من قبل .
أن الضمير الإنساني ، كما نعنيه هنا .

هو « الإنسان في وجوده الحقيقي » .
وأوّل مظاهر هذا الوجود الحق للإنسان ، هو . . الفكر .
وكل دفاع عن حرية الضمير ، وحقوقه .. هو دفاع عن حرية
الفكر ، وحقوقه .
ومن شاء . . فليعد تلاوة النصوص التي سلفت كلها . . فسيبصر أنها
مباشرة في حماية الفكر ، مثلما هي مباشرة في حماية الضمير .
إن « التفكير » عملية ذهنية . . نزاؤها جميعاً بأسلوب تلقائي حتمي .
لا نتكلفه . ولسنا على دفعه بقادرين .
كل فرد يفكر في شئونه ، ومشاكله ، وشواغله ، ورؤى نفسه .
وكل فرد يعبر عن ذات نفسه بالطريقة التي يستطيعها .
ويتعرق تفكيرنا .. وينافق تعبيرنا ، حين تُصيبننا بعض
الضغوط الكابحة .
هذه الضغوط التي ترتكب بتقمحها حتى الفكر .. جريمة . .
« إرهاب الضمير » .
وإرهاب الضمير ، أشدّ قساوة ، وأكبر إفكاً ، وأيأس
مصيراً من إرهاب الجسد .
ذلك أن « إرهاب الجسد » قد يَكْبِتُ التصرفات والسلوك
والقول . .
ولكن الفكر يبقى بعد هذا يعمل ، ويجمع الوقود ثم يزجيه
ليوم الفصل .

وليس على ظهر الأرض قوة ، تستطيع أن تمنحك عن التفكير
فيما تشاء ..

ذلك أن التفكير عملية مخبوءة ، غير منظورة ، وغير مسموعة .
إنك — في صمت — تفكر فيما تشاء .. ولا يعلم أحد عن
موضوع تفكيرك وخاطرات نفسك شيئاً ، إلا حين تفتح شفطيك ،
وتحرك لسانك ..

ومهما تكن الظروف التي تمسك لسانك عن كلام تريد أن
تقوله .. أو تمسك سلوكك عن عمل تريد أن تمارسه ؛ ففي يوم ما ،
ستتوفر لك لا محالة ، ظروف أخرى تمكنك من القول ومن العمل
في حرية واختيار .

لكن إرهاب الضمير شيء مختلف جداً .. فهو يسلط على « ثورة »
الحياة فيفسدها إفساداً لا يكاد يصلحها بعد ذلك شيء .
أو هو ، يلوى زمام الضمير عن السبل الصحيحة ، إلى طرائق ، كلها
حفر وعثرات !! ..

إنك — مثلاً — حين تؤمن بحق البشر في سلام دائم ، ويمارس
ضميرك دوماً تفكيراً دائماً في هذا الحق .. ثم تقوم ظروف قاهرة ،
أو قوة راهبة ، تحول بينك ، وبين الإعلان عن صوت ضميرك ، وإذاعة
ما تفكر فيه .. فإن ذلك لا يضير .. إلا ريثما تتوارى تلك الظروف ،
فتجد فرصتك في التعبير عن ضميرك ، وعقلك ، وفكرتك التي أنضجتها
المثابرة ، والأناة ، والصبر المفروض !! ..

لكن حين تكون الظروف من نوع آخر فتنفذ بالإرهاب السادر ،
أو بالخداع الماكر إلى ضميرك نفسه .. إلى عقلك ، وتفكيرك ، فتفسده
حتى ترى السلام خرافة .. والحرب ضرورة .. فتلك هي الكارثة التي
لا تكاد تؤذن بعلاج .. !!

لماذا .. ؟؟

لأن الضربة هنا ، وجهت إلى « بؤرة » الحياة نفسها .. إلى « مركز
البنفس » ذاته .. إلى الجهاز العظيم الذي يصنع لنا في الحياة كل جليل
من الأمور ، وكل عظيم من الأعمال ..
ذلكم هو العقل .. والضمير .
ومثل آخر ..

قد تكون إنساناً متديناً ، وتعتقد - خطأ - أن تعليم البنت حرام ..
عندئذ ، ستكون مستعداً حسب درجة تدينك إلى ارتكاب أية جريمة ،
تمنع هذا الذي تظنه منكراً ، وهو تعليم الفتاة ..
وساعتئذ ، لن تسمى جريمتك هذه ، جريمة ، ولكن ستدعوها
جهاداً .. وبطولة .. وإذا انتهت بموتك ، فسترى ذلك الموت ،
تضحية ، واستشهاداً .

وقد تكون من الذكاء والمقدرة ، بحيث تستطيع أن تجمع حولك
« قطعياً » هائلاً من المؤمنين بك ، وبقولك ..
وقد تستطيع أن تقود هذا القطيع إلى فتنة أو ثورة ، تكافحون بها
« تعليم البنت » - مثلاً - ..

وسيكون السبب الكامن وراء هذا كله « انحراف الضمير » .. 11

ومن أين يجيء هذا الانحراف ؟؟

* يجيء من إرهاب الضمير ..

* ومن تضليله ، وحبس المعرفة عنه ..

ويتم إرهاب الضمير عن طريق التخويف الديني .. والتخويف
السياسي .. والتخويف الاجتماعي ..

وإن ضحايا الحروب الدينية .. والثورات السياسية والاجتماعية ..
لتشير إلى إرهاب الضمير ، كنقطة بدء لكل ما أصاب ، وما يصيب
البشرية من عناء .

ولو أن الناس يُتركون ، ليفكروا في حرية ، وليبلغوا حقوقهم
في حرية ، لتوفر كثير من الدم المراق ..
ومن أجل هذا ...

ومن أجل أن يحيا الناس في وجود حقيقي صادق طيب .. هتف محمد
وهتف المسيح بالكثير من حقوق الفكر ، والضمير .

ولقد حدثتكم في بعض مؤلفاتي السابقة ، عن المدى البعيد ، والرشد
الذي ذهب إليه محمد ، في احترامه حقوق العقل ، حتى فتح ذراعيه
لحرية الشك ذاتها ..

وذلك ، حين ذهب إليه بعض أصحابه ، يشكون إليه أنفسهم ،
ويبشرونه بخاوفهم القاتلة من شكوك في الله ، تُساورهم ..

فإذا هو يُجيبهم متهللاً :

« هل وجدتموه ..؟؟ — يعنى الشكّ — » .

فيقولون فى أسى : نعم ..

فيجيبهم فى بشر :

« الحمد لله .. هذا تحض الإيمان » ... 111

من كان يعرف مثالا ، لاحترام الضمير الإنسانى ، أروع من هذا
المثال ، فليدلبنا عليه ..

هذا رسول .. صاحب دعوة .. وصاحب دين ..

لباب دينه ، الإيمان بالله ..

ثم يعتبر الشك سبيلا لليقين ، ووسيلة للإيمان ، بدلا من أن يعتبره
جريمة ووزراً ..؟؟

إنه لأمر فريد ، وعجيب .. 11

والآن .. يحىء دور سؤال هام ، علينا أن نعرضه .. وعلينا أن
نواجهه فى شجاعة ، وفى بصيرة ..

وهذا ، هو السؤال :

ألم يكن السلوك الذى حدده المسيح ومحمد للناس ، وطلبنا إليهم
ألا يجاوزوه — وصاية على الضمير ..؟؟

ألم يكن التخويف الشديد الذى بَثَّاه خلال وعيدهما للعصاة ..
إرهاباً للضمير ..؟؟

سؤال يجىء فى أوانه ، وفى مكانه ، بعد حديثنا المسهب عن رعاية
الرسولين لحقوق الضمير الإنسانى ، وحمايتهما لمصيره .
وأجيب : لا .. لم يكن من ذلك شيء .. إذا أحسنا فهم محمد ،
وفهم المسيح ..

لقد ظهر المسيح فى قوم ، كانوا يخضعون — كارهين — لوطاة
« روما » وكبرياتها .. ويخضعون — مخدوعين — لتعاليم الكهنة
وخرافاتهم ..

ناس ، كان الضمير فيهم ملفوفاً داخل قطعة من البلم الرومانى ..
المرشوش بالماء المقدس .. أو الذى كان الكهنة يسمونه مقدساً .. !!
وكانت السلطة الزمنية ، والسلطة الدينية « متفاهتين » تماماً على
موقفهما من الضمير « متفقتين » على ضرورة اضطهاده ، والتنكيل به .
السلطة الزمنية ، تضطهده بوسائلها المعروفة .. السجن .. والصلب
والتعذيب .. !!

والسلطة الدينية ، ترهبه بوسائلها المعروفة كذلك .. الطرد من
الهيكل .. الحرمان من البركة .. الوعيد بالنار .. !!

فماذا فعل المسيح تجاه هاتين السلطتين الضالتين ؟
أما الأولى فقد أراد أن يعزل سلطانها عن الضمير بطريقة ذكية ،
فقال حكمته الماثورة :

« ما لقيصر ، لقيصر .. وما لله ، لله ... »
واتجه صوب السلطة الدينية ، التي كانت في معظم تصرفاتها « دثاراً »
يغطي جرائم روما وسلاحاً يفتك به حكامها .. فقال لرؤساء الكهنة :
« يا أولاد الأفاعى .. يا مرءون .. أنتم كذابون ،
ومهرجون .. تتحدثون بالصلوات ، وأنتم
فَجَرَة .. !! »

وعمد إلى أساطيرهم ، فتجدها وسخر منها ..
واستقبل الضمير الإنساني ، القابع في أفئدة ناس يرتجفون من
الخوف ، فقال لهؤلاء : لا تخافوا .. إن أباكم السماوى قادر على
حمايتكم .. وهو فيما يتعلق بحقوقه ، غفور ورحيم ..
وبمثل هذا .. قام محمد ..

قال للأشراف الذين كانوا يستضعفون الناس ، وَيَسْتَرْقُونَهُمْ :
« ليس لابن البيضاء ، على ابن السوداء فضل ..
فارفعوا العبيد إلى جواركم » ..

فلما وضعوا أصابعهم في آذانهم . قاد العبيد بنفسه ، ليأخذوا
مكانهم المشروع ، بجوار السادة ..
ولما رفع السادة سيوفهم .. صاح بالعبيد ، أن يدرجوا السادة
الغاصبين إلى السفح البعيد .. ويأخذوا مكانهم الذى هم به جديرون . !
واتجه صوب « الأسر الدينى » المتمثل فى الأصنام .. فألقاها على
الأرض أنقاضاً وتراباً ، وقال ، وهو ينكت مصيرها :

« جاء الحق ، وزهق الباطل .. إن الباطل

كان زهوقا » .. ١١

ولم يكن ذلك من المسيح ومن محمد ، إلا لحساب الضمير ، ولحساب
التقدم الإنسانى أيضا . .

وقد يصعب على بعض الناس ، تصور هذا اليوم ، لأنهم
بعيدون — جداً — عن الزمان ، وعن المكان ، وعن الظروف التى
تمت خلالها ، تلك الخطوات الجليلة ، الجريئة ، الفاتحة ..

وهنا ، نسأل :

أكان يصح ، والرسولان الكريمان ، يهدمان تعاليم جامدة ،
ألا يقيم مكانها نهجاً للحياة جداً .. ؟؟
بداهة ، لا .. ولا بد إذن من منهاج .. ولقد دعا كل منهما
إلى منهاجه .

وهذا المنهاج ، ثابت وباق فيما يتعلق بقيم الحياة المثلى .. من
خير ، وحق ، وجمال ، وتضحية ، ومعرفة ..
ولكنه مرّن ، ومتحرك ، وقابل للتطوير ، فيما يتعلق بسلوك الجماعة ،
واحتياجاتها ..

والآن ، نسأل سؤالاً آخر :

ماذا كانت طبيعة دعوتهما .. ؟؟

أكانت وصاية على الضمير .. ؟؟

أكانت ، وهى تدعو الناس إلى فضائل معينة تريد أن « تحدّد إقامة الضمير » .. ؟

أكانت ، وهى تُخَوِّف الناس من عاقبة الخروج عن الصف ، تريد أن ترهب الضمير .. ؟

إن تخويفاً أكيداً ، قد حدث ..

ونستطيع أن نلتقى به فى تلك الآيات الغضّاب التى يضمها الإنجيل ، ويضمها القرآن ..

* لكن التخويف الذى لا يتحوّل إلى إرهاب ، قد يكون نافعاً .. سيما فى تلك الأزمان البعيدة .. ذلك أن الطبيعة الإنسانية ، كما تنفعل بالرجاء ، تنفعل بالخوف ..

ونحن حتى اليوم ، نعتمد قوانيننا ، ويعتمد عرفنا الاجتماعى ، على الزواجر ، كوسيلة من وسائل التربية والتقويم .

وكما قلنا : التخويف فى حد ذاته ، وبقدر حصيل ليس ضاراً ..

فلا بد من مخافة المرض .. حتى نُعنى بالصحة ..

ولا بد من مخافة الفوضى .. حتى نحترم النظام ..

ولا بد من مخافة الحرب .. لكى نتشبث بالسلام .

إلى الآن — على الأقل — يلعب الخوف الطبيعى هذا الدور

فى تقدمنا ..

ولكن حين نسرف فى استعمال الخوف فيصير إرهاباً .. أو نسيء

استعماله ؛ فلا نقدم معه الأمل والرجاء ، فإن الوضع آنئذ يختلف كثيراً .

ويتحوّل الخوف إلى جريمة ووبال .
والتخويف الذى لوّح به المسيح ، وأخوه محمد ، لم يكن مسيئاً ، لأنه
لم يكن وحده .. بل كان وسط ذخّر عظيم من الرجاء ، والأمل ،
والكشف الصادق عن رحمة الله الواسعة ، وفضله السابغ . . .

كما أنه لم يكن إرهاباً . . .

فالمسيح ، لم يحمل سيفه ليدخل عقائده فى قلوب الناس عنوة . .
ومحمد لم يحمل سيفه ليدخل عقائده فى قلوب الناس عنوة . .
إنما حمله ، ليدافع عن نفسه وعن دينه ضدّ المعتدين . .
وليس أدلّ على هذا ، من أنه حين ظفر وانتصر ، لم يكره واحداً
من الناس على الدخول فى دينه . .

ولقد رفع — عالياً — هذا المبدأ الجليل الذى أوحاه الله إليه ..
« لا إكراه فى الدين .. قد تبين الرّشّد من
الغىّ » . . .

* وإذا انتفى وجود الإرهاب .. انتفى وجود الوصاية ، والحجر
على الضمير . .

لقد كان لكل من الرسولين ، عقيدته ومنهاجه .. بثّ الرسولان
دعوتهما فى حرارة وقوة ، ورسماً للمؤمنين بهما مسلكاً وطريقاً .
ولكن ذلك كله ، لا يعنى الحجر على الضمير الإنسانى ، ولا ينبغى
أن يعنى ذلك فى وعينا .

فكل إنسان حر ، في أن يقبل عليهما ، أو يعرض عنهما ..
وهما لا يسلكان الناس في الأغلال ، ثم يسوقانهم إلى الإيمان ،
والإذعان ..

كما أنهما لا يحرمان المؤمنين بهما من حق التفكير والمحاولة ..
هذا هو المسيح يقول :
« ابحثوا عن الحق » ..

والقرآن يقول :
« سيروا في الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق » .
والرسول يقول :

« تفكّر ساعة ، خير من عبادة سنة » ..
ولقد طالعنا من قبل موقفه الجليل إزاء الذين غلبهم الشك في الله ،
أو كاد .. فما عتّفهم ، ولا فتح لهم أبواب الجحيم ، بل قال لهم ، وعلى
شفتيه بسمه الرضا واليقين :

« هذا صريح الإيمان » .. ! !

الفصل الخامس

مَعَا
مَنْ أَجَلَ الْحَيَاةَ

« أنا خبز الحياة » ..

كان المسيح يهذى إلى الحياة من خير ما فى نفسه ، حين قال
هذه الكلمات ..

ولإنها لتحمل من الطرافة ، بقدر ما تحمل من الحكمة الفنية
الحافلة ...

ولإنها لتثير تساؤلا ، وعجبا .. ؟؟

فماذا كان يعنى المسيح بالخبز .. ؟؟

أكان يعنى المذاق المادى لطيبات الحياة وهو الذى قال : « لا تطلبوا
أنتم ما تأكلون ، وما تشربون » .. ؟؟

ولماذا اختار هذا التركيب بالذات « خبز الحياة » .. ؟

لماذا ، وهو العابد الأواب ، لم يقل : أنا خبز الإيمان .. أو :
أنا خبز التقوى .. أو خبز الآخرة .. ؟؟

لماذا آثر « الحياة » .. وقال : « أنا خبز الحياة » .. ؟؟

ألا إن الجواب ليسير ..

فالحياة ، هى « الموضوع » الذى جاء المسيح ليجلّيه للناس ،
ويشرحه ، ويلقى فيه درسه البليغ ..

هى « الأم » التى جاء المسيح ، كما جاء محمد ، وكما جاء أخوة لهم
من المرسلين ، لينادوا إليها أبناءها الشاردين عنها .. وليجبوا

فى أنفس الناس .. شعائر البرّ بها ، والولاء لها ..
وإذا كانت الحياة لا يظفر بها ، ولا يحياها ، إلا أولئك الذين
يكون لهم وجود حقيقى ، فقد جعل الرسولان العظيمان نصب أعينهما ،
اكتشاف هذا الوجود الحقيقى للإنسان ..
ووجودنا الحقيقى ، يبدأ من أين ..؟؟
يبدأ من حيث توجد وتمارس العلاقات الصحيحة مع كل
ما حولنا ..

ولقد كان اكتشاف هذه العلاقات ، أكثر ما عاش له ، وعمل
فى سبيله ، محمد ، والمسيح ..
لقد كشفّا للإنسان أزكى علاقاته ، بالله .. وبنفسه .. وبالعائلة
البشرية كلها .. وبالكون وأسراره الخافلات ..
* أما علاقتنا بالله ، فقد ارتفعا بها فوق كل رغبة ، ورهبة ..
وجعلوها حباً خالصاً ..

قال المسيح :

« الله محبة » ..

قال محمد :

« أفضل الأعمال ، الحب فى الله » ..

* وأما علاقتنا بأنفسنا ، فقد ركّزناها فى العمل الدائب على
صقلها ، وتعليقها .

قال المسيح :

« ماذا ينفع الإنسان ، لو ربح العالم كله ،
وخسر نفسه » ..

وقال القرآن المنزل على محمد :

« قد أفلح من زكَّاهَا ، وقد خاب من دَسَّاهَا » ..
* وأما علاقاتنا بالآخرين ، فالتسامح المطلق ، والتعاقد الوثيق .
قال المسيح :

« أحسنوا إلى مبغضيك ، وَصَلُّوا لأجل الذين
يسيئون إليكم ويطردونكم » ..

وقال محمد :

« انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ..
* وأما علاقاتنا بالكون ، وبأسرار الطبيعة ، فهي التطلع
الشفوف ، والبحث وراء المجهول .
قال المسيح :

« اقرعوا ، يفتح لكم » .

وقال القرآن الكريم :

« سيروا في الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق » .
عندما تتوفر لنا هذه العلاقات الرشيدة ، تتولد من تفاعلها « حركة »
دائبة ، بانية ، غايتها استثمار وجودنا ..

واستثمار الوجود بما يقتضيه من حركة ، وبما ينشئ من تبعة ،
وبما يُعطى من نتيجة : هو الحياة ..

لقد أحبّ المسيح الحياة ، بقلب حميم ، وعشقها بروح ودود .
كان — كما وصف نفسه — خبز الحياة .. لأنه غداها بتماليه ،
وسقى مثلها العليا ، وقيّمها الباقية من رُوحه .

ومن أراد أن يبصر حبّ المسيح للحياة ، فليبصره في الإنسان .

فقد كان الإنسان خير موضوعات الحياة عنده ..

وأحبّ وأقرب أشكال الإنسان إلى قلبه .. الطفل ..

إن « الإنسان الطفل » حبيب رُوحه ، وصفى نفسه .. لأنه خير

مثال للحياة الطالعة .. الصاعدة .. البريئة .. الصادقة .. ! !

إنه يحبّ الحياة ، غضة ، مُترعرة ، ناضرة ، لا تأثيم
فيها ، ولا مُخاتلة .

ومن ثمّ يجد انعكاسها هذا على خير موضوعاتها — الإنسان
الطفل — الذى يمثل الحياة الكاملة حقًا .. حين يُحاول .. وحين
يتعثّر .. وحين يشبّ وينمو ! .. !

لتقرأ في الإنجيل هذا النبأ :

« .. فى تلك الساعة ، تقدم التلاميذ إلى يسوع

قائلين : فمن هو أعظم فى ملكوت السماوات ؟ .. ؟

« فدعا يسوع إليه ولداً وأقامه فى وسطهم ، وقال :

م ١١ / معاً على الطريق ١٦١

الحق أقول لكم ، إن لم ترجعوا وتصيروا مثل
هؤلاء الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السماوات ..
« فمن وضع نفسه مثل هذا الولد ، فهو الأعظم
في ملكوت السماوات .. »

« ومن قَبِلَ ولداً واحداً مثل هذا ، فقد قَبِلَنِي ،
ومن أَعَثَر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي ،
فخير له أن يعلق في عنقه حجر الرحي ، ويفرق
في لُجَّة البحر » .. ١١

إن هذا الحَدَب العظيم على الطفولة الإنسانية ، تمثل حَدَباً أعظم على
كل ما في الحياة من خير ، وجمال ، وصدق ، وسلام ، وصعود ..
وكل من يُعَثَر واحدة من هذه القيم التي تزين الحياة وتنمّيها ، فقد
أعثر طفلاً من أطفال الله الذين يحبهم ، ويحرسهم ، ويرعاهم ..
ولأنّ الحياة عنده ، تعني الازدهار والاستمرار ، كان كثيراً
ما يشبّهُها بالحقل ، ويشبّه نفسه بالزارع الثابر ..
والحياة لدى المسيح ، هي الحياة .. خيرها ، وشرها .. حلوها
ومرّها .. خطأها ، وتجربتها ..
وهو يحبها جميعاً .. ويحنو عليها جميعاً .. حتى في شقاؤها ،
وفي أخطائها ..

ضرب لنفسه ذات يوم مثلاً :
« إنساناً زرع زرعاً في حقله .. وفيما الناس

نيام ، جاءه عدوه وزرع - زوانا - في وسط
الحنطة ، ومضى ..

« فلما طلع النبات وألقى ثماره ، ظهر الزوان
بجانب الحنطة ، فجاءه خدمه ، وقالوا له :
يا سيد ، أليس زرعاً جيداً زرعت في حقلك ،
فمن أين له هذا الزوان ؟؟

« قال لهم : إنسان عدو ، فعل هذا .
« قالوا له : أنذهب ، فنجمعه ؟
« قال لهم : لا ، لئلا تقلعوا الحنطة مع - الزوان -
وأتم تجمعونه » ... 111

انظروا حنانه على الحياة ، وأحيائها ..
طالعوا برّه بفضائلها ، وبأخطائها ..
إن الزرع الجيد ، هم الناس الطيبون ، والزرع الرديء ، هم
الناس الخطّاءون ..
وإنه ليرفض أن يقتلع الزرع الرديء رفقا بالطيب ، حتى لا يُجثث معه ،
ويذهب بدّدا ..

ولكن ، أكان يعنى إسلام مصير الطيب للخبيث ..؟؟
كلا ، فالمسيح لا يدع الرحمة تبطل العدل ، ولا يتأتى لبرّه العظيم
أن يعتاق سنن الكون ، ونظام الحياة .

ومن أجل هذا ، أتمّ المثل الذي ضربه ، فقال :
« .. دعوها ينموا .. كلاهما معاً إلى الحصاد .. »
« وفي وقت الحصاد ، أقول للحاصدين : اجمعوا
أولاً — الزوان — واحزموه حزمًا ليحرق ..
وأما الحنطة فاجمعوها إلى مخزني » ١١..
تري ، لو أمكن تحويل هذا — الزوان — إلى زرع طيب ، وحنطة
جيدة .. أيكون مصيره الحرق أيضًا ؟؟..
بالبداهة ، لا .. وهنا يتم حرص المسيح على الإنسان وعلى
الحياة دورته ، فيبذل جهده ليحوّل — الزوان — إلى زرع نضير ،
وقمح وفير ..
يُحوّل الشرّ إلى خير .. والإنسان الضالّ إلى إنسان أمين مستقيم .
« أنا ما جئت لأدعُو أبرراً للتوبة ، بل خطائين » .
« ما جئت لأهلك أنفس الناس ، بل لأخلص » .

ولقد أحبّ « محمد » الحياة حبًّا عزيزاً نقيًّا ، وكان لها صديقًا ،
أيّ صديقٍ ١١..
أحبها في كل مظاهرها ، ونَبَضها ..
فإذا هطل المطر ، سارع إليه كاشفًا عن صدره ، ليتلقّى رذاذه
الندى الرطيب وليس بينهما حجاب ..

وإذا بزغ الهلال ، استقبله في إخبات وحفاوة ، وناجاه قائلاً :

« ربي وربك الله » ..

ويسير بين الحقول — وما كان أندرها في بلده — فإذا وقمت
عيناه على براعم تتفتح ، دنا منها ، ومسها بيد حانية ، ثم انحنى
عليها ، ولثمها بفم شكور ، وغمرها بفيض من مودته وصدافته ،
ثم همس إليها قائلاً :

« عام خير وبركة ، إن شاء الله » .. ١١

وإذا طلعت الشمس استقبلها داعياً مبتهلاً .. وحين تغرب ،
فلها منه تحية الوداع ..

ولكأنما سارع الله إلى هواه ، وشاء أن يزكي صداقته الجميمة
للكون ، وللحياة ، فأقسم في قرآنه الكريم بـ « الليل ، إذا يغشى ..
والنهار ، إذا تجلى .. » وأقسم بـ « الشمس وضحاها ، والقمر إذا
تلاها ، والنهار إذا جلاها » ..

لقد احترم الرسول صلى الله عليه وسلم الحياة في كل حي ..
في الإنسان .. والحيوان .. والطير ..

في الأبيض .. والأسود .. والأصفر ..

في عظمتها .. وفي بؤسها ..

مرت به ذات يوم جنازة ، فوقف لها في خشوع .. حتى إذا جاوزته
قال له أصحابه : يا رسول الله ، إنها جنازة يهودى .. فأجابهم :

« سبحان الله .. أليست نفساً » .. ١٢

ولم يَطِقْ أن يرى الحياة تتعذب في « هِرّة » فقال محذراً :
« دخلت امرأة النار في هِرّة حبستها ، فلا هي
أطعمتها ، ولا هي تركتها » ..
بل أراد أن يملأ الأفئدة بتقديس الحياة ، حتى لا يبقى فيها مكان
— أى مكان — لامتهانها .. وساق هذه القصة القصيرة ، والمثيرة :
« بينما يَبْغِي تسير ذات يوم ، إذ رأت كلباً يلتهث
من العطش ، فخلعت مُوقهاً — أى نعلها — وأدلتّه
بجبل في بئر ، وملاّته ماء ، وسقت الكلب ؛
فشكر الله لها ، وأدخلها الجنة » .. 11

وَحُبّه للحياة ، جعله يرفض أن يحياها مترفاً ، لأن الترف يذهب
ببهجة معاناتها ..

« نحنُ قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا
أكلنا ، لا نشبع » ..
ورفض أن يحياها متجبراً ، لأن التجبر افتيات على قداستها ..
« إنما أنا بشر مثلكم » ..
ورفض أن يعزله الجهل عن حقائقها ..
« رب زدنى علماً » ..

« اطلبوا العلم ولو في الصين » ..
ولم يحدث قط أن تحدث القرآن عن الحياة حديث استخفاف وتحذير .
إلا وهي مقرونة بكلمة « دنيا » ..

« الحياة الدنيا ، لعب ولهو » ..
« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » ..
« وأترفناهم في الحياة الدنيا » ..
وقال عن الذين يعيشون كالأنعام ، لا دور لهم في الحياة ..
« إن هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا » ..
فالحياة المقرونة بهذا الوصف ..
الحياة « الدنيا » ..
الحياة الصغيرة الضئيلة ، التي لا تحليق لها ، ولا تبرز فيها ، هي التي
يذكرها القرآن دوماً في مجال الاستخفاف ..
أما الحياة العظيمة ..
الحياة الصالحة ، فالمسيح خبزها .. ومحمد صديقها ..

قلت : إن علاقاتنا السديدة بالله .. وبأنفسنا .. وبالعالم ..
وبالكون جميعه .. تمكّنا من استثمار وجودنا ..
وقلت : إن استثمار الوجود يعنى أننا نمارس الحياة ..
وأقول : إننا على أبواب هذه الممارسة نلتقى بعلاقات أخرى تربطنا
بالحياة ، وتشدنا إليها ..
وكما كانت هذه العلاقات صافية ، صادقة ، جادة .. كانت الحياة
بالنسبة لنا فرصة عظيمة مباركة ..

أما إذا اعتور هذه العلاقات الزيف ، والانحراف ، والكذب ،
فإن الحياة — حياتنا — تفقد جمالها ، وقيمتها ..
وقد نستطيع أن نتصور هذه العلاقات في :

* الحب ...

* الصدق ...

* العمل ...

كل أشياء الحياة ، بينها مودة وإلاف .. حتى الخير والشر اللذين
يبدوان لنا نقيضين لا يتفقان ، وضدين لا يجتمعان .. يسرى بينهم
« شريان » خفي من التجاذب والتعاون .. وكثير ما تعمى السبل على
الخير ، فيتقدم الشر ويفتح أمامه الطريق ...
والأرض ، وما حولها من كواكب ، تألف الشمس ، وتحبها ،
وتتجذب نحوها ..

ونحن نتجذب إلى الأرض في حنان ، واضطرار ..
وهكذا ، فالحب الذي نسميه « جاذبية » ليس مجرد فضيلة ، ولا مجرد
عاطفة .. إنما هو « قانون » يحفظ لأصحابه الوجود ، والبقاء ..
وسكان هذا الكوكب — نحن البشر — في حاجة أكيدة ،
لإدراك هذه الحقيقة إدراكاً سديداً ..

وبالأمس .. الأمس البعيد ، الذي أرسل فيه محمد ، والمسيح ،
كنا أشد حاجة لهذا الإدراك ..
فغراثنا التي خرجنا بها من الغابة .. ونظّمنا الملأى بالتناقضات ..

كثيراً ما تجعل منا خصوماً وأعداء ، والحب منتصر حتماً آخر الأمر ،
لأنه كما أسلفنا ، ليس عاطفة ، بل « قانوناً » .. بيد أن ذلك لا يعنى
السكوت عن دعوة الناس إلى ممارسة هذا القانون ، وإحياء شعائره ،
والتزام جادته ..

ولقد جاء الرسولان الكريمان ليناديا الخليقة إليه .. إلى الحب ،
والإخاء ..

وأروع ما فى دعوتهما للحب من شواهد ، هو إسقاطهما ذنوب
المتحايين فى الله ، وجعلهما « الحب » رحمة واسعة ، تذوب فى دفئها ،
الخطايا والآثام .

فالمسيح وهو يفسر سبب المغفرة الشاملة التى بَشَّرَ بها الخاطئة ، يقول :
« لقد أَحَبَّتْ كثيراً ، فغفر لها كثيراً » .. !!

وتمدد ...

يُسَاقُ إليه ذات يوم رجل من المسلمين ، كان قد اعتاد احتساء الخمر .
ولم يكد أتحاب الرسول الجالسون معه يبصرون الرجل قادماً ،
يُمَسِّكُ بعض الصحابة بتلابيبه ، حتى قالوا فى ازدراء وضجر : « لعنه الله ،
ما أ كثر ما يُؤْتَى به شارباً » .. !!

ولكن الرسول لا يستريح لما يسمع منهم ، فيقول لهم فى اهتمام :
« لا تلعنوه ، فإنه يحب الله ورسوله » .. !!

وهكذا ، يقيم المسيح والرسول ، المعيار الحق لفضيلة الإنسان
— أى إنسان — وهذا المعيار ، هو .. الحب ..

وحب الله ورسوله هنا ، يمثل مجالا أرحب مما قد يتبادر إلى أفهامنا .
إن حب الله ، يعنى حب آثار رحمته جميعاً من بشر ، وشجر وحجر .
يعنى حب الحياة كلها ، والإنسانية التى هى زينتها ، ولبابها .
لقد غفر المسيح للخاطئة ، لأنها كانت تتصل بالحياة العظيمة عن
طريق علاقة من أوثق علاقاتها ، وهى المحبة ..
ورفض محمد ، أن يُعلن رجل سكير ، لأنه كان يرى
فى فؤاده نفس العلاقة .

وفى الوقت الذى تكون علاقتنا بالحياة قائمة ، وصادقة ، فإن أخطاء
السلوك ، تفقد ضراوتها وقيمتها ، مادامت لا تأخذ طابع
التحدى والإصرار ..

والحب — كما قلنا — أوثق علاقتنا بالحياة .
ولقد يأخذ فى مصطلحاتنا أسماء شتى ، فتارة نسميه الرحمة ، وأخرى
نسميه الأخاء ، أو التعاون ، أو البر ..
ولكن اسمه الحق سيظل كما هو .. الحب ..
وسيظل « أباً » لكافة العلاقات ، والقيم التى تربطنا بالحياة
وتجذبنا نحوها .

وتكفير الخطايا بالحب ، على النحو الذى رأيناه الآن من الرسولين
الكريمين يشير إلى تفسير جديد للخطيئة وللذنب ..
فأفعالنا التى توصف بأنها خطايا ، إنما حملت هذا الوصف ، لأنها
تثبط ولاءنا للحياة ، وتؤذى علاقتنا بها ..

وتكون أفعالنا شريرة ، لا بقدر ما تحمل من شر ، فليس للشر وجود ذاتي .. بل بقدر ما تعزلنا عن العلاقات الرشيدة الصحيحة الفاضلة التي تربطنا بالحياة ، وتربط الحياة بنا ..

لذلك صوراً فرحهما العظيم ، بل وفرح الله من قبل ، بالإنسان التائب .. أى الإنسان الذى يعود إلى تصحيح موقفه من تلك العلاقات التي تصله بالحياة ، ويعيش بسببها حياً ، وكراماً .. !!
ضرب المسيح لهذا مثلاً :

« .. ابناً أخذ المال الذى أعطاه له أبوه ، وسافر إلى كورة بعيدة ، وهناك بذر ماله .. فلما أنفق كل شيء : حدث جوع شديد وبدأ يحتاج ، واشتغل أجيراً لواحد من الناس ، يرعى له خنازيره ..

« وكان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذى كانت الخنازير تأكله ، فلم يعطه أحد ..

« فرجع إلى نفسه ، وقال : كم أجير عند أبى يفضل عنه الخبز ، وأنا أهلك جوعاً .. أقوم وأذهب إلى أبى ، وأقول له : يا أبى ، أخطأت ولست مستحقاً أن أدعى لك ابناً ، اجعلنى كأحد أجرائك ..

« وقام ، وجاء إلى أبيه ..

« وإذ كان لم يزل يعيداً رآه أبوه ، فتحتن ورخص ، وأسرع إليه وقبله ، وقال لعبيده :
« اخرجوا الحلة ، وألبسوه ، واجعلوا خاتماً في يده ،
وحذاء في رجليه ، واذبحوا العجل المسمن وأطعموا
الناس ، ونادى قائلاً :

« لنفرح ، ونُسِرَ ؛ لأن ابني هذا كان مَيِّتاً ،
فعاش ، وكان ضالاً ، فَوُجِدَ » ..

بعد أن ينتهي المسيح من ضرب هذا المثل يدير بصره الودود على
الوجوه المصغية إليه ، ويقول :

« هكذا الله .. أبوك السماوى .. يشفق أن يرى
أبناءه البشر يعودون إليه تائبين » .. 11

وضرب الرسول مثلاً :

« لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه ،
من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ..
فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه .. فأيسرَ
منها .. فأتى شجرة ، فاضطجع في ظلها ،
قد أيس من راحلته ..

« فبينما هو كذلك ، إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ
بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت (عبدى)
وأنا (ربك) .. أخطأ من شدة الفرح » ..

ويأخذ الرسولان الكريمان قلوبنا إلى الحب أخذاً وثيقاً ، بما يتركان
لنا من قدوة تتمثل في سلوك صادق وعظيم .

فالمسيح في إحدى أمسياته الأخيرة على الأرض ، يقوم عن طعام
العشاء ، ويأخذ « منشفة » ويتزر بها ، ثم يصب الماء في آنية ،
ويدعو تلامذته ، فيغسل لهم أقدامهم واحداً ، واحداً ، ثم يجففها
بالمشفة التي معه ..

ويفشى تلامذته الحياء والفرع ، ويحاولون منع المسيح ، لكنه
يواصل عمله العظيم ، وهو يقول لهم :
« الآن تعلمون تفسيره » ..

وبعد أن ينجز غسل أقدامهم وتجفيفها ، يقول :
« أنتم تدعونني معلماً ، وسيداً .. وحسناً تقولون ؛
لأنى كذلك .. »

« فإن كنتُ ، وأنا السيد المعلم ، قد غسلتُ
أرجلكم .. فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم
أرجل بعض » ..

ويُنْخَضُ محمد واحة المحبة بكل عاطفة رِيَّانة طيبة ، فيوصي
الناس قائلاً :

« إذا أحب أحدكم أخاه ، فليخبره أنه يحبه » ..
« وإذا آخى الرجلُ الرجلَ ، فليسأله عن اسمه ،
واسم أبيه ، ومَنْ هو .. فإنه أوصل للمودة » ..

ويقول :

« يقول الله عز وجل : المتحابون لجلالي ، لهم منابر من نور ، يغبطهم النبيون ، والشهداء » ...
« إن من عباد الله أناساً ، ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة ؛ مكانهم من الله تعالى ! .. »

« قالوا : يا رسول الله ، تخبرنا من هم ؟ .. »
« قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها .. فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعل نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس .. وقرأ هذه الآية .. »
« — ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون — » ١١ .. »

إن الرسول يرفع الحب فوق مستوى المنفعة والفرض .. فيقول :
« تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يعاطونها » .
وهو أيضاً يقرر أن الحب يغطي ضعفنا ، ويرفعنا إلى كل مكانة عالية ، عجزت أعمالنا عن أن تصعد بنا إليها .. وذلك حين يسأله
« أبوذر » :

يا رسول الله ، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل همهم ؟

فيجيبه الرسول :

« المرء مع من أحب » ..

إن الحب هو الزاد الذي يردُّ عن البشرية سَفَهاً المضنى ، وهو الرّىّ
الذى يدفع عنها ظمأها القاتل .

وهى لا تستطيع أن تحيا ما لم تحب ؛ لأن الحب هو الآصرة العظيمة
التي تجمعها بالحياة ، وتمنحها الجناحين اللذين تخلق بهما وتطير .

والصدق .. .

إنه العلاقة الثانية التي ترتبط بها مع الحياة ..

ومكان الصدق من الحب ، جد قريب ..

فنحن نكذب حين نخاف ..

نكذب على الناس حين نخافهم .. ونكذب على القانون ، حين

نخافه .. بل نكذب على أنفسنا ونخدعها ، حين نخافها ..

ومع الحب ، لا يوجد خوف .. وإذن ، لا يُوجد كذب ! ..

والصدق هنا ، أبعد مدّى ، وأرحب مفهوماً من مجرد الإخبار

بالواقع ..

أعنى ، ليس هو قول الحق وحسب .. بل هو أن نعيش الحقّ نفسه .

هذا ، هو الصدق ، كعلاقة تربطنا بالحياة ، وهو يعنى تحرير أنفسنا

من كل ما يجعلها تحيا حياة زائفة مزوّرة .

يعنى أن يشتملنا تطابق واضح ، بين ظاهرها وباطنها .. بين حياتنا الباطنة ، وحياتنا الظاهرة .

ويعنى أن نكون قَوَّامِينَ بالقسط ، ولو على أنفسنا ..
ويعنى أيضاً ، بذل أقصى الجهد فى كل عمل نعمله ، وفى كل موقف نتخذه . . .

ولقد علمنا هذا محمد ، والمسيح ..
لقد شَنَّا على الرياء هجوماً عنيفاً .. وأخبر الرسول أن « ذا الوجهين ، يُدعى عند الله كذاباً » .

فالرياء كذب .. والكذب تزيف لعلاقة ثمينة من علاقات الحياة ، وَقِيَمَهَا ، وهى الصدق .

من أجل هذا ، كان الرسولان يحثيان بكل مخطيء يتقدم ، وفى يده وثيقة إدانته .

هذا الذى يسميه عصرنا الحديث ، بـ « النقد الذاتى » ..

ولطالما ضرب الله برسوله المثل ، واصطنع منه القدوة ..

فإذا أخطأ — مثلاً — مع إنسان ضرير .. ولو بحسن نية ، وقف فى محراب الصلاة ، والناس من ورائه صفوفًا ينصتون له ، وهو يتلو عليهم وثيقة اعترافه ، وَأَوْبَتَهُ :

« عَبَسَ وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يُدْرِيكَ لعله نزّهً كَرِيماً ، أو يذكركُ فتنفعه الذكرى ، أما من

استغنى ، فأنت له تصدّي ، وما عليك ألا يزكى ،
وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه
تلهى .. ؟ كلا » ١١٠٠

ولأنه ليخدش أعرايياً ذات مرة ، دون عمد ، فيصرُّ على أن يخدشه
الأعرابي مثلها ١١٠٠

ويقف فوق المنبر في جلال عظيم ، ليقول لأصحابه الذين يستمعون له :
« من كنت جللت له ظهراً ، فهذا ظهري ؛
فليقتدّ منه .. ومن كنت أخذت من ماله شيئاً
فهذا مالى فليأخذ منه » ١١٠٠

إنه لم يجلد في حياته ظهراً ، ولم يؤلم لأحد ظفراً .. ولكنه
الصدق المطلق مع الحياة ، يُمارسه الرسول في أنقى صوره ، وأوفاهها
بالذمة والطهر ..

وإذا كانت حياته لم تتلف قط برياء أو ضعف ، فهي كذلك
لم تتلف قط بفرور ، ولا بصلف ..

لقد كان يسابق زوجته ، ويخصف نعله بيده ، ويرقع ثوبه بنفسه .
ولقد حلب شاته .. وخدم أهله .. وحمل الطوب مع أصحابه في بناء
مسجده .. وربط على بطنه الحجر من الجوع ١١٠٠

وكان إذا سار في الطريق ، ومعه أصحابه ، دعاهم ليتقدّموا عليه ..
وإذا قدم عليهم ، وهم جلوس ، جلس حيث انتهى به المجلس ..

وكان يقول لهم دائماً ، حين يدعونه لتكريم خاص :
« إني أكره أن أتميزَ عليكم » .. 11

هذا ، هو الصدق مع الحياة ..
أن نعيشها ، عادلين ، طيبين ، واضحين ، ودُعاء ، بُسطاء ..
وأن نمارس مسئولياتها ، ونعائق واجباتها ، لا أن نتبذخ بما فيها
من فراغ وتَرَف وجه ..
اقرأوا ..

« .. وفيما كان يسوع صاعداً إلى أورشليم ، أخذ
الاثنى عشر تلميذاً على انفراد في الطريق .

« وقال لهم : ها نحن صاعدون إلى أورشليم ، وابن
الإنسان يسلم إلى رؤساء الكهنة ، والكتبة ،
فيحكمون عليه بالموت .

« .. حينئذ ، تقدمت إليه أم ابني زبدي مع
ابنيها ، وسجدت ، وطلبت منه شيئاً ، فقال لها :
ماذا تريدين . . ؟ قالت له : أن يجلس ابناي هذان
— يعقوب ، ويوحنا — واحد عن يمينك ،
والآخر عن اليسار في ملكوتك ..

« فأجاب يسوع وقال : لستما تعلمان ما تطلبان .
« أتستطيعان أن تشربا الكأس التي سوف
أشربها أنا » .. 11

ما أجزلها من عبارة 11..
فالحياة ، ليست منصباً فخرِيّاً ، ولا وُجُوداً شَرَفِيّاً ..
إنما هى عمل جسيم دائب صادق ..
وهنا نلتقى بعلاقة أخرى من علاقاتنا بالحياة .

إنها العمل ...
والحياة بغير عمل ، تفقد ذاتها .. فهى عمل مستمر ، وصاعد ..
هى حركة أزلية ، وأبدية خالدة .. كل شىء فيها يمجج بالحركة
والمثابرة ..
هذه المياه الجارية .. هذه الرياح السارية .. هذه الأشجار ، والأزهار .
بل هذه الصخرة التى تبدو جامدة .. والخشبة التى نحسبها خامدة .
كلها ، وكل أشياء الحياة تُزاول حركة دائبة ، ونشاطاً موصولاً .
والكن العمل قد ينحرف ، فيفقد على الفور مزيته ، وقيمه .
من أجل هذا ، عني « حُبز الحياة » كما عني « صديقها » بأن يُزكيا
جميع الخصائص التى تحتفظ للعمل بقيمته وبنقائه .
لقد أرادا للعمل أن يكون دائماً :

جليلا ..

نافعا ..

مستمراً ..

صاعداً ..

فالعمل الجليل ، النافع ، المستمر ، المُوَلَّى وجهه شطر الأمام ..
لا الزاحف إلى الخلف ..

هذا العمل يمثل أسمى واجباتنا ، كما يمثل علاقة كبيرة من خير
علاقاتنا بالحياة ..

وجلال العمل ، يعنى الارتفاع بقدراتنا إلى مستوى الكمال
الميسور .. حتى نحقق بها عظم الأمور ، ولا نقنع بصغارها ..
يقول الرسول في هذا :

« إن الله يحب معالي الأمور .. ويكره سفاسفها ».

ويقول المسيح ، مطالباً الناس بمزيد من العمل ، وبعيد من الهمة :
« كل من أعطى كثيراً .. يُطلب منه كثير » ..

ويقول محمد :

« إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » ..

ويُحذّر من الأعمال الناقصة المبتورة ، ويؤثر العمل المستمر ،
ولو كان قليلاً ، على العمل الأتري ، ولو كان كثيراً .. ويضرب
لهذا مثلاً جميلاً حين يقول :

« .. فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ ، لَا أَرْضًا قَطَعَ .. وَلَا ظَهْرًا
أَبْقَى » ..!!

وهو يريد من العمل أن يكون واعياً .. وأن يكون في خدمة التقدم
الإنساني .. ولا يكون انتكاساً أو ردة إلى الوراء ..

وإنه لعظيم باهر ، وهو يقول فى هذا ما معناه :

« يُذاد أناس من أمَّتِي عن الحوض يوم القيامة !
فأنهض لأشفع لهم ، فيقول الله لى :
« يا محمد ، لا تفعل .. إنك لا تدري ما أحدثوا
بعدك .. فأقول : يارب ، وما أحدثوا ؟ ..
« فيقول سبحانه : إنهم كانوا يمشون بعدك
القهقرى على أعقابهم » ١١..

والرسول — كما ذكرنا قبلا — وكذلك المسيح ، كانت دعوتهما
حركة جديدة سائرة نحو المستقبل ، متجهة إلى الأمام دوماً .
ولإنهما ليُجلان العمل ، ويهييان بنا أن نرتفع به فوق كل غرض
ردىء ، ونجنبه كل انحراف وزيف .
والإنسان الذى يقضى حياته فى عمل صادق نافع ، يصير موضع رعاية
الله وتقديره ..

« لا أضيع عمل عامل منكم ، من ذكر أو أنثى » .
ولقد لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً أحد أصحابه ، وحين
صالحه ، أحس فى كفه خشونة .. فسأله :
« يا سعد ، ما بال كفِّك قد أجملت » ١٢..

فأجابه سعد :

— من أثر (العمل) يا رسول الله .

فرفع الرسول كفى سعد إلى فمه وقبّلها ، ثم قال :
« كفّان ، يحبهما الله ، ورسوله » .. 11

هكذا ، كان برّ محمد والمسيح بالحياة ..
لم تجمعها بهما عاطفة عابرة ، بل وعى رشيد ، وإدراك سديد
لقيمتهما ، ودّعهم هائل لكل القيم والقوى التي تبعث فيها الازدهار
والتألق ...

وعلى رأسها جميعاً ما ذكرناه — الحب — والعمل ..
ولقد عاشا حياة مُترعة بالحب ، وبالصدق ، والعمل ..
وكان لهما مع الزمان رحلة من أمجد ، وأنفع ، وأبقى رحلاته .
واليوم ، ونحن نشيد من آمالنا ، ومن إصرارنا بناء عزم جديد
قادر ، نريد أن نحمل به حياتنا من الدمار ، ننحني إكباراً لهذين
الرائدين الجليلين ولإخوة لهما سبقوها بالإيمان وبالسعى ، من أجل أن
تبقى الحياة مزدانة بأحياء مباركين .

وإذا كانت الحروب هي شر ما يَحقيق بالحياة من خطر ..
وإذا كان « محمد ، والمسيح » قد أعلنّا في ولاء وإصرار ، حق الحياة
في الحياة ..

فإنه لمن الضروري إذن ، أن نبصر موقفهما من السلام ، وكيف
أراداه ، وعلى أية صورة تمثّلاه ..

وإنه لمن الخير لأنفسنا أن نفقه جيداً الدور الذي قام به محمد وصاحبه
لإقرار السلام في الأرض .. وجعله شعيرة من شعائر الله .. ١١

السلام ...
عندما ترن في سمع الظالم العطشان كلمة « ماء » ...
وفي سمع الجائع السَّعْبَان كلمة « خبز » ..
وفي سمع المشرف على الغرق ، المتخاذل تحت ضربات الموج كلمة
« شاطئ » ..

لا يكون لهذا الرنين مهما يكن صادقاً ، إلا قليلاً جداً ، مما هو للرنين
الصاهل القوى المفرح ، الذي تتركه في عصر الذرة كلمة « سلام » .. ١١
ولو أن الحرب ، وحدها هي التي تهدد وجودنا كله ، لمان
الأمر ، أو كاد ..

غير أن الذي يحاصرنا بأخطاره الماحقة ، والذي تعتبر الحرب
نفسها نتيجة له .. هو التفكير الملتكات المفرض ..
وإني لأذكر الفزع الشديد الذي غشيني ذات يوم قريب ، حين
طلعت خطاباً ، أو تصريحاً لرجل مسئول في أوروبا ، يشغل منصباً
خطيراً ، يقول :

« لا بد من الحرب ، دفاعاً عن الحضارة المسيحية » .. ١١
وقلت لنفسى يومها :

مسيحية ، وحرب .. ١١٩٢

أى اتفاق « سعيد » هذا .. ١١٩٢

إن هذه العبارة ، التى تقال فى عصرنا هذا ، المتحضّر كثيراً ،
والمتقدم جداً .. (١) لتشير إلى « الفضيلة » التى طالما تنكّرت فيها
« رذيلة » العدوان والبغى ..

فمعظم الحروب التى أُنْخِنت جروح الحياة ، كان لها منطق تسويغى ،
وحجة تبرر قيامها ، وتمنحها المشروعية ، وجواز المرور .. ١١٠

فباسم الدفاع عن الأديان تارة .. وباسم الحرية ، وحماية حقوق
الإنسان تارة أخرى .. وباسم تمدين الشعوب المتخلفة .. وباسم المجال
الحيوى للدول التى ضاقت الأرض فيها بأهلها ..
وباسم أشياء كثيرة ، كانت تبدو ، وكأنها منطقية وعادلة ..
قامت حروب صبغت الأرض بالدم .. وغطّت ترابها بالأشلاء
والجناجم ..

وكان وراء تلك الحروب .. ووراء شعاراتها الكاذبة ، ذلك الذى
أسميناه آنفاً .. بالتفكير الملتأث المغرض ..

وهو « ملتأث » .. لأنه يجهل إرادة التاريخ ..

و « مغرض » .. لأنه يُقاومها ويتحداها ..

أى أنه بتعبير آخر .. كان وراء تلك الحروب ، جهل بإرادة
التاريخ ، وعصيان لها .

وهنا ، نضع أيدينا على « نقطة البدء » في موقف محمد والمسيح من الحرب ، ومن السلام ..

وهنا - أيضاً - تَفْنَى تلك الشُّبُهَات التي تُتَلَقَّى في رُوع الكثيرين منا ، أن لمحمد من الحرب موقفاً يُفاير موقف المسيح . .

إن من يحترم الإنسان ، والحياة ، مثلما احترهما المسيح والرسول ، لن يكون حرصه على السلام إلا عظيماً .

فالسَّلام ، هو المجال الآمن الذي تترعرع فيه مواهب البشر ، وقدراتهم وهو السلوك الأَوْحد اللائق بأناس يجمعهم على الأرض عِناء مشترك . . ورجاء مشترك . . وسمى مشترك ..

ناس ، أبوهم واحد .. وأمهم واحدة ..
ناس ، ليسوا - مهما يتباغضوا ويتباعَدوا - سوى إخوة وأشقاء . .
من أجل هذا ، كانت أولى الحقائق الجديرة بأن يترد إليها صوابهم ، هي ذى ..

ومن هنا ، بدأ المسيح وأخوه دعوتهم للسلام ..

قال المسيح لتلاميذه :

« معلمكم واحد ، المسيح .. وأنتم جميعاً إخوة » .

وقال محمد :

« كونوا عباد الله إخواناً .. كما أمركم الله تعالى » :

ولم يكن « الأخاء » مجرد كلمة يُردّدانها . بل كان كما رأينا من قبل

وخلال عرضنا لموقفهما من الإنسان .. عقيدة ، وسلوكا .
لقد ذكرنا في مبتكر هذا الكتاب أن حياة كل من الرسولين
العظيمين ، كانت طاهرة ، لاشيية فيها .. ولم يحدث أن أخذ عليهما شيء
- أى شيء - من التزيد والادعاء .
ولقد دعيا إلى الرحمة .. فكان لابد أن يكونا رحيمين ودعيا إلى
العدل ، فكان لابد أن يكونا عادلين .
ودعيا إلى السلام ، فكان لابد أن يكونا مسالمين .
ولقد كانا كذلك فعلا .. وعند أكثر مستويات الكمال البشرى
ارتفاعا عاشا حياتهما ، ومارسا دورهما الفذ العظيم .
إن أقوالهما في السلام ، لمشرقة إشراق الصباح المبلل بقطر الندى .
وإن سلوكهما مع السلام ، لمجيد .
إن الناس يحاربون ، ليفرضوا مشيئتهم .
ولقد ألغى المسيح فرض المشيئة هـذا حتى لو كانت مشيئة هائلة
وقاضلة .
قال لتلاميذه وهو يوصيهم :

« وأية مدينة دخلتموها ، ولم يقبلوكم فاخرجوا إلى
شوارعها وقولوا : حتى الغبار الذى لصق بنا من
مدينتكم ننفضه عنا » .. !

والناس يحاربون من أجل الأرض يستعمرونها ، ويستغلونها

ولكن استعمارهم هذا وغلّتهم ذاك ، لن يدوماً . وسيكون للمسلمين
الودعاء جميع المستقبل ، وجميع المصير :

« طوبى للودعاء ، لأنهم يرثون الأرض » .

وهو — أعنى المسيح — يضع مبدأ هائلاً ، ورشيداً فى العلاقات
الإنسانية ، فيقول :

« من ليس علينا .. فهو معنا » .

وينفر من الحرب نفوراً شديداً ، ويحذر من عُقباها ، فيقول :
« كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب .. وبيت
منقسم على بيت يسقط » .

ويحب الحياة وديعة ، مزدهرة ، حافلة بالبهاج والحب ، ويبت فى
الأفئدة طمأنينة ، وأملاً ، ويخفف عنها روعها ، ويتمنى للحياة عمراً طويلاً
فى هذه الكلمات :

« إذا سمعتم بحروب وقلقل ، فلا تجزعوا .. لأنه
لا بد أن يكون هذا أولاً .. ولكن لا يكون
المنتهى سريعاً » ... !!

كم هى عذبة ، وطيبة ، ومتفائلة ، كلماته الحانيات هذه .. « لا يكون
المنتهى سريعاً » .. !!؟؟

وما ترك — ابن الإنسان — ثغرة ، تستطيع البغضاء ، وتستطيع

الشر أن ينفذ من خلالها إلى الحب ، وإلى السلام ، إلا أوصدها ،
وتحاماها .

ومن الحب ، والسلام ، والإيمان ، والطهر ، شاد حول الحياة سياجا
لا يرام .

فدعوته المضروب على خده الأيمن ، أن يعطى لضاربه خده الأيسر .
ودعوته من اغتصب رداؤه ، أن يترك الإزار أيضاً .
وتحذيره المجاجل ، للذين تجيء منهم العثرات المغنية لهذا العالم .
وإعلانه ، أن « كل من غضب على أخيه باطلا ، يكون مُستوجب
الحكم » .
وقوله :

إن أعثرتك يدك فاقطعها

« ماجئت لأهلك . بل لأخلص » .

« أريد رحمة .. لا ذبيحة » .

كل هذا الهدى ، سياج منيع أقامه المسيح حول الحياة .
إنه لم ينتظر حتى يسيء الناس إلى الحياة بالقتل .. فتلقاهم دون
ذلك بأبعاد بعيدة .. تلقاهم عند الغضب — مجرد الغضب — وصاح :
هذا قتل .. !!

فهل يعلم هذا — جيداً — الذين يؤمنون بالمسيح في زماننا ، إنه خلّيق
بهم أن يعلموا .. !

وخير لهم ألا يضلوا في زحمة البغضاء والطمع ، عن كلماته المضيئة ..
ومشيئته السديدة .

ولمثل هذا الذى يعمل من أجله العاملون .. عمل إنسان من أكثر
أبناء الحياة برًا بها ، وغيره عليها .
إنه « محمد » .

لقد وقف يبلغ عن ربه في ولاء الصادقين ، ويقين المرسلين أنه :
« من قتل نفسا بغير نفس ، أو فساد في الأرض ،
فكأنما قتل الناس جميعاً » .

انظروا ...

إن الحياة لا تتجزأ .

ليس هناك حياة لى .. وحياة لك .

إن الحياة كائن واحد .. وأى مساس بأى جزء منها ، مساس بها
كلها ، وعدوان عليها جميعها .. !!
وكما اعتبر المسيح البغضاء كالقتل .. اعتبر محمد القطيعة قتلا ، فقال
محذرا منها :

« من هَجَرَ أخاه سنة .. فهو كسفك دمه » .. !!
وإنه كذلك ليعلم أن الناس يتحاربون ويتقاتلون من أجل الأرض
يستعمرونها ، فيحرقى السلام من هذا السبب .. ويعلن أن من غير

تخوم الأرض لينال شبرا ، ليس له فيه حق ، برئت منه ذمة الله ،
ورسوله .. !!

ويختصم إليه اثنان : غرس أحدهما نخلا في أرض الآخر .. فيقضى
لصاحب الأرض بأرضه ، ويأمر صاحب النخل أن يخرج نخله منها ..
فتضرب أصولها بالفتوس فورا .. !

ويقول في حديث زاجر عظيم :

« من اغتصب - شبرا - من أرض طوَّقه إلى سبع
أرضين » .

ويعطى هذا المعنى مزيداً من التوكيد ، لعله بما يحره الغصب والطمع
من شقاق ، ونزاع ، وقتال .. فيقول :

« من اغتصب مال أخيه بيمينه - أى بالقوة -
حرم الله عليه الجنة ، وأدخله النار .. »

سأله سائل : يا رسول الله ، وإن كان شيئاً يسيراً ؟
قال : « وإن كان عوداً من أراك » !!

ويسأل محمد - كما أسلفنا - عن أفضل الأعمال ، فيجيب :
« بذل السلام للعالم » .

ويربط الأيمان بالحب لئنشأ معا سلاما للحياة وأمنا .. فيقول :
« والذي نفسى بيده ، لا تؤمنوا حتى تحابوا .. ألا
أدلكم عن شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ . أفشوا
السلام بينكم » .

ويرفع السعى من أجل السلام إلى مكانة تفضل جميع العبادات فيقول
في حديث رائع :

« ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة ، والصيام ؟

إصلاح ذات البين » !!

ويستبعد كل أسباب الشجار ، حتى التافه الضئيل منها ، فيقول :

« إذا مر أحدكم في مجلس ، أو سوق ، وفي يده نبل

فليأخذ بنصالها لا يחדش بها أحداً » . . .

ويبلغ عن الله سبحانه قوله :

« ادفع بالتي هي أحسن السيئة » .

ويسأل سائل :

يا رسول الله ، دلتني على عمل ، إذا عملته أكون قد فعلت
الخير جميعاً .

فيجيبه الرسول عليه السلام ، « لا تغضب » . . .

لقد تتبع الرسول كل أسباب البغضاء ، والحرب ، في سلوك الفرد ،
وفي سلوك الجماعة فكافحها ، ونهى عنها .

ولعل سائلاً يسأل :

إذا كان محمد قد أنزل « السلام » من قلبه ، ومن شريعته هذا المنزل
الرفيع .. فكيف إذن حمل سيفه وحارب .. وكيف إذن ، جعل الجنة
تحت ظلال السيوف !!؟

سؤال عادل ، ومنطق أمين . .
والإجابة عنه ترجع بنا إلى نقطة هامة بدأنا بها حديثنا عن السلام . .
إذ قلنا : إن الحروب تنشأ دائماً ، أو غالباً من سبب واحد ، هو جهل
إرادة التاريخ ، ومقاومتها .

حيث يوجد هذا السبب ، يوجد لا محالة تحفز وحرب .
ذلك أن التاريخ ، الذى هو تطور إنسانى زاحف ، لا راد لسيره .
التاريخ هذا . . ماض بالحياة إلى غايات جديدة دائماً .
وكل مرحلة جديدة منه ، تفرض نفسها بقوة الميلاد ، وبقوة الضرورة
التاريخية التى أهابت بها لتجىء .

كما أن مرحلة قديمة ماثلة للعروب ، تحاول التشبث والبقاء .
وتصطنع كل مرحلة لنفسها مؤمنين من الناس وأنصارا . .
وهنا يقف الجديد ، والقديم وجها لوجه . .
وحيث تكون هذه المواجهة تكون الثورات ، وتكون الأحداث
الكبيرة .

وكما أمعن أنصار المرحلة الآفلة فى جهل إرادة التاريخ ، وفى مقاومتهم
لوليده الجديد ، يكون الصدام أمراً محتوما . .
وهذا ما حدث أيام الرسول عليه السلام .
قامت حروب . . كان سببها الجهل بإرادة التاريخ ، ومقاومة
هذه الإرادة . .

ولم تأت المقاومة من جانب محمد . بل من الجانب الآخر المعادى له .

أما محمد ، ودعوته .. فقد كانا يمثلان الجديد القادم .. يمثلان إرادة التاريخ نفسها ..

وهذا واضح تماما ، من ظروف الدنيا أيام بعثته ، ومن طبيعة دعوته التي جاء بها .. ولقد أشرنا لهذا في الفصل الثاني من فصول الكتاب .

أنا لا أحاول هنا الدفاع عن الرسول ، ولا أحاول تبرير فضاله .. فليس في حياته العظيمة كلها ما يدعو لمثل هذه المحاولة .

ولمّا أحاول افتراض أن « السلام » نفسه تجسد وصار إنسانا . فماذا كان هذا الإنسان صانعا تجاه الظروف المعادية التي ناوأته محمدا .. إن الإجابة عن هذا السؤال يسيرة ، إذا نحن أدركنا المفهوم الصحيح للسلام ..

فالسلام ليس هروبا من المسؤولية .. وليس إذعانا لقوى الشر ، وليس مسaire للخطأ .. وليس مجزا عن الاختيار ، والممارسة .. وبعبارة واحدة : السلام قيمة تعبر عن نفسها بالإيجاب ، لا بالسلب . وأكثر الناس تقديراً للسلام ، وحاجة إليه ، رسول جاء يدعو إلى عبادة الله ، وتركية النفس ..

إن السلام يمثل « الوطن » لدعوة من هذا الطراز .. ولقد لاذ محمد بهذا الوطن .. لا يريد من الناس سوى أن يتركوه يبلغ كلمات ربه .. ويمارس واجبا يملأ نفسه ، ويدعو دعوة لا تقاوم ، إلى التبشير به ، والعمل في سبيله .

وسارع ، فأعلن « تعايشاً سلمياً » عادلاً .

« لكم دينكم .. ولى دين » .. ۱۱۱

ولكن أعداء التاريخ ، لم يتركوه ، ولم يمهلوه ..

لم يذروا دنيئة إلا ارتكبوها معه ..

حصبوه بالطلوب ..

سلطوا عليه سفهاءهم ، فغمروه بروث البهائم ، وهو ساجد يناجى ربّه :

حاصروا أهله ، وعشيرته حصاراً اقتصادياً خانقاً .. ۱۱

مارسوا شر الجرائم وأرذلها ، مع الفقراء والمستضعفين الذين اتبعوه .. ۱۱

ثلاث عشرة سنة ، قضاها وسط مؤامرات لا تهدأ ، واعتداءات

لا ترعوى .. وهو فى صبره ، وفى حلمه ، وفى السلام الحق الذى يريده

ويحبه ، ويتمنى دوامه ..

يتمنون فى إيذائه ، وفى السكيدله .. فيمعن هو فى الصفح عنهم ،

وفى الدعاء لهم .

ولا تشغله جراحه الشاغبة ، وآلامه اللاهبة عن الابتهاال من أجلهم

« اللهم اغفر لقومى ، فإنهم لا يعلمون » .. ۱۱

لنتأمل جيداً كلمة - لا يعلمون - فإنها تمثل إدراك الرسول لحقيقة

المشكلة - جهل أعدائه بإرادة التاريخ ؛ التى هى إرادة الله من قبل .

وما داموا - لا يعلمون - فإن واجب الرسول أن يعلمهم ..

وهنا يتضح السر العظيم الجليل فى صبر الرسول عليهم ثلاثة

عشر عاماً ..

ويستبين فهمه الرشيد لحقيقة السلام ، الذى هو إيجاب ، لاسلب ..
ومواجهة ، لا هروب .. 11

لقد كان محمد ، وهو يصبر على أذاهم ، ويعلمهم ، يمارس سلاماً حقيقياً ،
فهو لم يحلم عليهم ، ويصبر على هولهم .. خوفاً أو استسلاماً .
بل ، لأنهم لا يعلمون .. وعليه أن يعلمهم ..
لا يبصرون .. وعليه أن يفتح عيونهم ..
وهذا ، هو السلام ..

السلام الإيجابى ، الذى يواجه مسؤولياته ، دون أن يحمله العدوان على
الهروب ، ولا على المقاومة غير المشروعة .. !

ولكن هؤلاء - الذين لا يعلمون - يستنفدون - آخر الأمر - كل
حقهم فى المعرفة ، وكل فرصتهم فى السلام ..

ذلك أنهم يصرون إصراراً وبملاً ، لا على التثبت بباطلهم فحسب ..
بل وعلى خنق الدعوة وإبادتها .
وقرر واقتل محمد عليه صلاة الله وسلامه ..

وحتى بعد هذه الجريمة السافرة ، لم يشأ الرسول أن يقاوم .. على
الرغم من أن المقاومة آنئذ ، صارت حقاً مشروعاً له ، بل وصارت تعبيراً
آخر عن العدل ، وعن السلام ..

لم يشأ أن يقاوم ، وهاجر إلى المدينة ..

ومن المدينة سارت الأحداث في الطريق الذي جعل المقاومة
محتومة ولازمة ..

لم يقاتل الرسول ، حين قاتل ، من أجل توسع ، أو امتلاك ، أو سيادة
بل حصر جهاده « في سبيل الله » .
وعبارة « في سبيل الله » هذه .. تمثل الإطار الذي خاض الرسول
المعركة داخله .

ولا يكاد شيء يكشف عن ولاء الرسول للسلام ، مثلاً يكشفه
سلوكه في الحرب .

فعلى كثرة الغزوات التي خاضها ، لم يكن عدد الضحايا فيها جميعاً ،
سوى بضع عشرات من كلا الفريقين .. !

وحين علم يوماً أن - خالد بن الوليد - أسرف في القتل في بعض
غزواته ، جلجل غاضباً ، ورفع يديه إلى السماء معتذراً إلى الله ، ضارعاً
وهو يقول:

« اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ، اللهم إني أبرأ

إليك مما صنع خالد » 11..

ولقد كان أمره لأصحابه بين يدي كل معركة :

« لا تقتلوا امرأة » .

« ولا شيخاً » .

« ولا وليداً » .

« ولا تحرقوا زرعاً » .

« ولا نخيلاً » .

« ولا تنهبوا » .

« ولا تمثلوا بأحد » .

« واجتنبوا الوجوه ، لا تضربوها » . !

وكما جاء عيسى ليكمل الشريعة .. جاء محمد ليستأنف المسير .

واقعد كان « الصليب الكبير » الذى أعده المجرمون للمسيح .. يترأى

لرسول دوما ..

وما كان من الخير أن يُمكن المجرمون من انتصار جديد .. يتمفظون

فيه بدم رسول شهيد .. !

ما كان من الخير أن تخفق دعوات الهدى فى المهد ، كل مرة .

وإذا كان المسيح ، قد حمل « صليبه » من أجل السلام .

فإن محمداً ، قد حمل « سيفه » من أجل السلام .

كلاهما ، سيف .

الصليب الذى حمله المسيح ، سيف ، أراد اليهود أن يقضوا به على

« ابن الإنسان » ورأى الحق ..

وسيف محمد ، سيف ، أراد محمد أن يقضى به على أعداء الإنسان ،

وأعداء الحق .

وغاية الرسولين واحدة .. السلام .
في دور المسيح ، كان السيف مُسلطاً على الحق .
وفي دَوْر محمد ، كان السيف مُسلطاً على الباطل .
وفي سلوك المسيح ، عبر السلام عن نفسه بالرحمة ..
وفي سلوك محمد ، عبر السلام عن نفسه بالعدل .
وهكذا استكمل جناحيه اللذين يخلق بهما عالياً ..
والرسول لم يحترف القتال ، ولم يكن له هواية ..
وإنه ليعلم أصحابه ، ويرسم لهم الحدود المشروعة للنزال :
« أيها الناس .. »

« لا تتمنوا لقاء العدو .. »

واسألوا الله العافية ..

« وإذا لقيتموهم ، فاصبروا » .

أرأيتم .. ؟؟

إنه إنسان ودود ، مسالم .. لا يريد لقاء العدو ، ولا يتمناه .
وإنه ليسأل الله في ضراعة ، أن يباعد بينه ، وبين هذا اللقاء .
ولكن ، إذا اضطره إليه واجب الدفاع عن الحق ، وتأديب الباطل
فسينهض من فوره ، ويصبر على مشقات النضال .. !!
ولقد عاش المسيح - في دعوته - ثلاثة أعوام .
وعاش محمد - في دعوته - ثلاثة وعشرين عاماً ..

وعلى الرغم من قصر الزمن الذى عاشه المسيح داعياً ، وعلى الرغم من تشبثه بالتسامح المطلق .. فقد كانت مكاييد المتربصين به تشد زناد غيظه ، فيزجرهم بكلمات شِداد .. ويكاد — أحياناً — يجنح إلى القصاص ، ويشيد بالقوة العادلة ..

فهو — مثلاً — يقول :

« إذا شتمك أخوك ، فوبخه .. فإن تاب فاغفر له ».

ويقول :

« حينما يحفظ القوى داره متساعداً ، تكون أمواله في أمان » .

وكثيراً ما نراه ، وهو يخاطب — أولاد الأفاعى — يحتدم غيظاً .. وكأنه يرغب فى أن يضربهم ، ويدحرجهم على الأرض ، كما فعل بموائد الصيارفة ، وأقفاص الباعة حين دخل الهيكل .. ولكن إدراكه العميق لدوره .. وإيمانه بأنه جاء الدنيا ليلقى عليها درساً عظيماً فى التسامح والمحبة جعلاه يكظم غيظه ، ويشرب كأسه فى سلام .. !!

قال لمن أراد أن يدافع عنه بسيفه ، حين هاجمه أعداؤه ليلاً ، ليأخذوه إلى رؤساء الكهنة ، كي يحاكموه :

« رُد سيفك إلى مكانه .. أتظن أنى لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبى فيقدم لى أكثر من اثنى عشر جيشاً من الملائكة .. ؟؟

« فكيف تكمل الكتب .. ؟ إنه هكذا ينبغي

أن يكون » !!

أجل .. هكذا ينبغي أن يكون .. ما دام قد جاء ليعلم الناس ، كيف
يمكن للحب أن يتفوق على الكراهية ، وللسلام أن ينتصر على المؤامرة .

وبعد .. فهكذا كان ولاء محمد والمسيح للحياة ..

وهكذا كان موقفهما مع السلام .

لقد حملا تبعات الوجود .. وأديا أمانة الحياة على نسق جد عظيم .
وعلى الطريق الذي ساراً عليه ، لا تزال كلمتهما ترسل ضياء باهراً ،
ولا تزال الدنيا تجد سكينه وأمنه ، في كلمات المسيح :
« سلاماً ، أترك لكم » ..

وفي كلمات محمد :

« كونوا عباد الله إخواناً » ..

الفصل السادس

والآن ...
بَارَا بَاس .. أَمَّ الْمَسِيح ..؟؟

عندما قاد اليهود في أورشليم روح الله عيسى إلى « بيلاطس »
الحاكم الروماني ، مطالبين بصلبه .. أطل « بيلاطس » عليهم ،
ومضى يحاورهم في شأن المسيح ، إذ كان يعلم أنهم يريدون إسلامه
لموت حسداً من عند أنفسهم .. ١١٠

قال لهم : « ماذا فعل يسوع ، الذي يدعى المسيح » .. ١١٠

وأجاب اليهود ، ورؤساء الكهنة : « إنه يفسد الأمة » .. ١١٠

وقال بيلاطس : « إني لا أجد علة في هذا الإنسان » ..

ونبحت كلاب أورشليم نافذة بنباحها من الزاوية الحادة ، التي تخرج
« بيلاطس » وتكرهه على الإذعان لنباحها .

قالوا : « إنه يهيج الشعب .. ويمنع أن تُعطى جزية لقيصر .

وإذا لم تصلبه ، فلن تكون محبباً لقيصر » .. ١١٠

وقال بيلاطس : « إننا الآن في العيد وسنطلق كما هي العادة واحداً

من المحكوم عليهم .. فليكن هو المسيح » ..

وتهاوش رؤساء الكهنة ، وتراكم يهود أورشليم كاختلاف

الضالة .. وصاحوا جميعاً : « لا .. لا .. أطلق سراح « باراباس » ،

أما المسيح ، فاصليه » . ١

ويلح « بيلاطس » كي ينزلوا عند رأيه ، فيقول لهم : « لقد فحست

هذا الإنسان قَدْ آمَنَ ، ولم أجد فيه علة ، ولا هيرودس أيضاً ، وجد فيه شيئاً مما تشتكون منه ..

ولكنهم يَلُؤُونُ ألسنتهم كأذناب الحَيَّات ، ويصيحون :

« خذ هذا .. وأطلق لنا باراباس » ..

« باراباس .. باراباس .. أما المسيح ، فاصليه » .. !

يقول إنجيل يوحنا :

« .. وكان — باراباس — إصّاً .. ! !

ويقول إنجيل لوقا :

« إنه كان مطروحاً في السجن لأجل فتنة ، وقتل » .

ويقول إنجيل مرقس ، مثل هذا أيضاً ..

إن نفس الخِيَار ، يُقَدِّمُ اليوم ويعلن :

ولأنه لمن حسن الحظ أن الذين يَخْتَارُونَ اليوم ، ليسوا يهود أورشليم ولكنهم العالم كافة .. والغرب المسيحي خاصة ..

لقد رفض أخبار اليهود في ذلك اليوم البعيد ، أن يَخْتَارُوا المسيح ، لأنه يُجمَعُ فضائل لا يطيقونها .. ومشرق عصر عظيم لا يسمح لنقائصهم بالازدهار ! ! ..

وحتى حين خجل ممثل روما العاتية الباغية ، أن يشترك في المؤامرة

الذنسة ، وتوسل إليهم كي يدعوا للمسيح حريته .. رفضوا ،
وصاحوا به .. بل باراباس ..

الحرية لباراباس .. والصلب للمسيح !! ..
ترى ، ماذا يكون جواب البشرية اليوم ، حين يطلب إليها
أن تختار ؟ ..

إن محمداً رسول الله ، ليهديها إلى الجواب الحق .. ولقد سبق
إلى الاختيار السيد ..
لقد اختار المسيح .. أى اختار فضائله التى جاء — هو — لبيعها
من جديد ..

فبذل ألف وأربعمائة عام إلا قليلا ، وهو قائم هناك ، فى شبه جزيرة
العرب ، يبلغ رسالات ربه ، أعلن أن المسيح سيعود .. وسيملا الأرض
نورا ، وسلاما ، وعدلا .. ١١ .. هذا هو ، يقول :
« والذى نفسى بيده ، ليؤشكن أن ينزل فيكم

ابن مريم مقسطا » ١١ ..

ترى ، ماذا نفهم من عودة المسيح ؟ ؟ ..
إن الجواب يسير ، إذا عرفنا ماذا كان المسيح .
أ كان ذلك الجسد الناحل .. والشعر المرسل .. والثلاثين عاما
التي سجلتها له على الأرض شهادتا الميلاد والوفاة ١٢ ..
كلا ...

إن المسيح ، هو دعوته .. هو المثل الأعلى الذى تركه وأعطاه ..

هو الحب الذى لا يعرف الكراهية .. هو السلام الذى لا يعرف
القلق .. هو الخلاص الذى لا يعرف الهلكة ..

وعندما تتحقق هذه كلها على الأرض ، تتحقق فى نفس الوقت ،
عودة المسيح ..

أجل ، إن المسيح الذى سيعود ، والذى تنبأ له الرسول بالرجوع ،
هو هذا ..

هو السلام ، والحب ، والحق ، والخير ، والجمال ..

ونحن ، مع « الرسول الأمين » ، نصيح:

المسيح .. لا باراباس ..

الحق .. لا الباطل ..

الحب .. لا الكراهية ..

السلام .. لا الحرب ..

الحياة .. لا الفناء ..

وإننا إذ نرفع فى أيماننا هذا الاختيار ، ليهدينا إليه وعى عظيم
بمحميته ، وأفضليته ، وقيمته ..

ويهدينا إليه بصرٌ ثاقب باحتياجات عصرنا الذى يمزقه القلق
والخوف ..

وبصر ثاقب بالمصير المروع الذى سيحقق بالعالم إذا كتب النصر
مرة أخرى للصرخة السافلة التى تقول :

باراباس .. لا المسيح !!!

إننا نعرف جيداً ، ونذكر تماماً .. أن « مائة وخمسين مليوناً »
من البشر ، ذهبوا ضحية الحربين العالميتين السالفتين ١١٠٠
« مائة وخمسون مليوناً » .. ما بين قتيل ، ومشوّه ،
وجريح ، ومفقود ١١٠٠
قَتَلَى ميادين الحرب .. وقتلَى معسكرات الإبادة .. وقتلَى الغارات
الجوية .. وقتلَى الأوبئة التى تَذَرُّوها رياح الحرب المتنّة ١١٠٠
« مائة وخمسون مليوناً » .. كانوا حصاد المهشيم .. والحصاد
الآليم ، لحروب خلقتها ، وأضرمتها ، الروح التى تؤثر « باراباس » ..
وترفض « المسيح » ١١٠٠
الروح المكفهر القائم ، الذى يرى فى الحرب صفقة .. وفى القوة
امتيازاً .. وفى السرقة سيادة ، ونبلًا ١١٠٠
الروح القائظ الملتاث ، الذى لا يحب الحب .. ولا السلام ..
ولا الحق ..
تُرى ، هل يسيطر هذا الروح ، وينشر على الحياة الجميلة
ضبابه وظلامه ١١٠٠ ؟
تُرى هل يقتحم الأفق الوديع ، المشرق ، نباح الكلاب من جديد :
باراباس .. باراباس ..
أما المسيح ، فيصلب ..
أما السلام ، فيصلب ..
أما الحُبّة ، فتصلب ..

هل يمكن أن يحدث ذلك مرة أخرى ؟؟ ..
إن التفاؤل الصادق الذى ملأ به محمد رسول الله أفئدتنا ، ليجعلنا
نجيب فى يقين راسخ : لا ...
لن يحدث ذلك مرة أخرى ..
لقد أقسم «رسول الله محمد» أن المسيح قادم ؛ ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً ..
ونحن نؤمن بصدقه ..
ونؤمن بأن عودة المسيح هذه .. تعنى انتصار القيم التى كان المسيح
يمثلها ، والتى قهر بها الرسول عالم الوثنية والظلام .
تعنى انتصار الإنسان ، وانتصار الحياة ..
تعنى سيادة الحب ، وسيادة السلام ..

عندما هاجم غوغاء اليهود بستان الزيتون ليقبضوا على المسيح ،
تقدم من الحرس ، وسألهم :

« من تطلبون » ؟؟ ..

أجابوه : « نريد الناصري » ..

فقال :

« أنا هو .. ولست أسألكم إلا شيئاً واحداً » .

ثم أشار بيد أمينة حانية صوب تلاميذه الذين كانوا معه فى البستان ،
واستأنف حديثه مع الحرس قائلاً :

« أن تدعوا هؤلاء ، يذهبون لبيوتهم ، حتى
أستطيع أن أقول لأبي حين ألقاه :
« إن الذين أعطيتني ، لم أهلك منهم أحداً » .. 11

انظروا ...

في هذه المbaughة الشريرة المذهلة ، لم يذكر نفسه ، ولا حياته ..
وإنما ذكر مسؤوليته الكبرى تجاه الآخرين .. 11
لم يشترط لنفسه نجاة ، ولا سلامة .. وإنما اشترطها للآخرين ..
وذلك كي يستطيع أن يقول لربه حين يلقاه :

« إن الذين أعطيتني ، لم أهلك منهم أحداً » .. 11
هذا هو روح العصر الذي يبشرنا محمد بمجيئه .. والذي نرقبه
صابرين .. واثقين .. عاملين ..
عصر يتفوق فيه الإيثار ، والحب ، ويحمل الناس فيه مسؤولية
وعيمهم ، وأمنهم ، ورخائهم ..
والواجب الذي سنذكره دوماً ، كلما ذكرنا المسيح ، ومحمداً ..
هو :

- * أن نجعل لوجودنا الإنساني حقيقة ، ومعنى ..
- * وأن نخص الإنسان والحياة بالنصيب الأوفى من تبعات رشدنا ..
- * وأن يكون سبيلنا لهذا ، الحق القوي .. والمحبة التيغطي ..

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيهاً
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

To: www.al-mostafa.com